

أبناء غوندوانا

تأليف: ألكسيس كوروس
ترجمة: ماريا باكلا

أبناء غوندوانا

تأليف: ألكسيس كوروس

رسومات ألكساندر رايشتاين

ترجمة: ماريا باكلا





© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

PZ90.F5 K68 2014

.Kouros, Alexis

أبناء غوندوانا/ تأليف: ألكسيس كوروس؛ رسومات: ألكساندر رايشتاين؛ ترجمة: ماريا باكلا.-

ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.

ص. ؛ سم.

ترجمة كتاب: Gondwanan lapset

تدمك: 9 - 393 - 17 - 9948 - 978

1. القصص العربية -- مترجمات من الفنلندية -- أدب الأطفال. 2.القصص الفنلندية -- مترجمات إلى العربية -- أدب الأطفال. أ. Reichstein, Alexander ب. باكلا، مارية. ج.العنوان.





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

أبناء غوندوانا

تأليف: ألكسيس كوروس

رسومات ألكساندر رايشتاين

ترجمة: ماريا باكلا





مقدمة

الرسمُ يحدد من الحقيقة صورةً، والصورة تحبس من الحياةِ لحظةً، وفي الحكاية يختار القاصُّ جزءاً من الواقع ويُثريه بالخيال، أو جزءاً من الخيال ويُثريه بالواقعِ. من ذا الذي يستطيع أن يُقرِّرَ متى ومن أين يبدأ المصير؟ ألا يؤثِّر في الأمر عادةً شخصٌ ما، أو حدثٌ تافهٌ وَقَع حتَّى قبل أن يكون لنا وجودٌ؟ من يستطيع أن يُقرِّرَ إذن من أين تبدأ الحكايةُ؟ وأين تنتهي؟ فالنُّقطة التي تنتهي عندها حكايةٌ ما هي ذاتها التي تبدأ منها حكايةٌ أخرى.

وبالتالي -عزيزي القارئ- أهديك هذه النقطة (•)، وأُفَوِّضُ أمرها إليك؛ لتضعها حيثُ تشاء، ولتعلن الفقرة التي تشاء نهايةً لهذه الحكاية.

بينما كانت الكُرةُ الأرضيةُ تديرُ جنبَها للشَّمسِ بكسلٍ للمرة التريليون في الصباح الباكر لأحد أيام الصَّيف الضبابية، كان هناك طائرٌ داخل بيضته لم تكن حياته قد بدأت بعد.. أحسَّ بالأمان وهو داخلها خلال ثلاثين يوماً كاملة. كانت أشعَّةُ الشمس في بعض الأحيان تتسلَّلُ من خلال قشرة بيْضَته فيَصِلُ إليه دفؤها، وأحياناً تصل إليه بعض أصوات العالم المحيط به، وكثيراً ما كان يشعر بحرارة أمِّه وبنبضات قلبها. وقد كَبُر الآنَ كثيراً، إلى درجة أنه أصبح يملأ البيضة كلها، بل اضطرَّ في الأيَّام الأخيرة إلى أن يُميل برأسه في جميع الاتجاهات الممكنة علَّهُ يجدُ وضعيةً مُريحةً فلم يعد له أدنى مجال للحركة!.

ما الذي ينتظرني في الخارج؟ ما ذلك الضوء الذي يسْطَع من خلال القشرة؟ هل سأضطرُّ إلى الخروج من هنا؟ من أنا؟ وما أنا؟... تدور في خلده عشرات الأسئلة التي قد لا يجد لها جواباً أبداً. الأمر الوحيد الأكيد هو أن وقت الخروج من البيضة قد حان، فالمكان أصبح أضيق مما يمكنه تحمُّله، وأخته قد فقست بيضتها قبله بزمن طويل، وهي الآن تأكل بشهيةٍ مفتوحة، وتكبر بسرعة.

وعندما تمكَّن أخيراً من كسر قشرة البيضة والخروج منها تبخَّرت من ذاكرته كلُّ ذكرياته عن حياته داخل البيضة، وهاهو ذا الآن خارج البيضة وأنه استفاق من نوم دام ألف سنةٍ. فتح عينيه ينظر إلى العالم وهو ضعيفٌ خائفٌ، كانت أوَّلُ صورةٍ تُحفَرُ في ذاكرته إلى الأبد هي صورة أمِّه وهي تمشي مرفوعة الرأسِ تنشر جناحيها القويَّين، وتضربُ بهما في الهواء فتُحْدِثُ ريح ترحيبٍ دافئةً.. إنها ريحٌ جعلته يحسُّ بالأمان - كانت تلك أول مرةٍ يُحسُّ فيها بالأمان، وأصبح يُحسُّ بنفس الإحساس فيما بعد كلما هبَّت الرِّيح.

لم ينسَ هذه الصورة في أيِّ لحظةٍ من لحظات حياته.. حفظتها ذاكرته واضحةً بكلِّ تفاصيلها كأنَّها حدثت بالأمس، أو هذا الصَّباحِ؛ كأنَّها كانت الحدث الوحيد الذي وقع في حياته. لم يكن عليه إلاَّ أن يُغلق عينيه فيرى تلك الصُّورةَ مُجدَّداً.

رغم أن أمَّه وإخوته التحقوا بأحد أسراب الطيور وغادروا الجزيرة منذ أسبوعين، إلاَّ أنَّه من المكان الذي بقي يُراقب منه بعض الطُّيور وهي تُحلِّق عالياً في السماء ثمَّ تغوص في الماء البارد بين الفينة والأخرى - بعضها كان يرتفع من الماء وفي فمه صيدٌ، وبعضها يرتفع دون أيِّ شيءٍ - كان يرى من ذلك المكان الريح البحرية شديدة البرودة تحْمِلُ صيحات الطيور وهي تُعلِمُ بعضها عن مكان وُجود الأسماك.

غرق في تفكيرٍ عميقٍ وهو ينظر إلى الطيور الأخرى، وسمع صوتاً غريباً يخرج من حنجرته؛ كان صوتاً لم يسمعه من قبل، ولم يكن له أي معنى، كأنَّه لم يصدر من حنجرته هو. لم تُعِر الطيور

الأخرى لصوتِه ذاك أدنى انتباهٍ، فنسي الأمر تماماً.

نظر حوله فرأى في الجزيرة أعشاشاً مهجورةً هنا وهناك.. كانت تلك الأعشاش قبل بضعة أيامٍ فقط تعجُّ بالحياة والحركة، أمّا الآن فقد أصبحت هادئة وفارغة.

لم تعد الطيور ترتفع منها وتعود إليها، ولم تعد أصوات الأفْراخِ الصغيرة الجائعة تُسمع فيها، ولم تعد تتدرَّب على الطَّيران منها. كان بعض الريش المتناثر من الطيور التي رحلت يحوم في الجو لـهُنيهةٍ قبل أن يتعلق أخيراً بالشُّجيرات أو يحُطَّ على الصُّخور. كانت السَّماءِ بلونها الرَّصاصيِّ تبدو متناسقةً كأنَّها غيمةٌ لا حدود لها معلَّقَةٌ في الجو؛ غيمة باردة وحبلى، وقريبةٌ جدّاً من الأرض. أما سطح البحر فبدا متجمداً وهو يعكس لون السَّماء الرَّمادي.

أحسَّ بدمعة تنفلت من زاوية عينه بسبب الرياحِ التي تصفع وجهه.لم يكن يبكي، فليس ثمةَ داعٍ للبكاء. ورغم أنَّ أُمَّهُ لم تتركه وحده لمدةٍ بهذا الطـول من قبـل، إلاَّ أنه كان واثقاً بأنَّها ستعود قريباً.

ألقى نظرةً خاطفةً على الأعشاش الخاوية الأخرى، ثم انتقل ببصره إلى السَّماء على أمل أن تظهر أمُّه في أيِّ لحظةٍ مثلما عادت مرَّةً بعد رحيلها مع الطيور. عادت وحاولت أن تدفعه للطيران، حاولت بكل ما أوتيت من قوةٍ، وجرَّبت بحزم وعزمٍ أكبر من كلِّ المرَّات السَّابقة. لكنَّ المعجزة لم تحدث رغْم ضيقِ الوقت. الحقيقة أنه لم يتمكَّن من تعلُّم الطَّيران، ولم يستطع يوماً أن يشعر بثقل جسمه تحت جناحيه.

عندما كان فرخاً ابن أسبوعين حيث كان مع أخته يُجرِّبان جناحيهما، لم يخطر على باله أبداً حينئذ أنَّه لن يطير في يوم ما. كانا يتدَرَّبان معاً يوميّاً، ولم يمضِ وقت طويل حتى ارتفعت أُخته في الجوِّ قليلاً لأوَّل مرة، وبعد فترةٍ قصيرة استطاعت أن ترتفع بما يكفي لترى من فوق الصُّخور تلك الطُّرق التي كانت تسلكها أمهما فوق البحر عندما تذهب للصَّيد. حاول هو الآخر أن يُحرِّك جناحيه أسرعَ فأسرعَ، أقوى فأقوى. كانت أمُّه تدفعه أحياناً، وتسحبه أحياناً أخرى. وعادةً ما كانت تطير مسافاتٍ نموذجية قصيرة لتُجبره على الطَّيران حتَّى يتمكَّن يوماً ما من الحصول على طعامه بنفسه، لكنَّ الفرخَ لم يكن يقوى إلا على الجري.

كانت الأمواج المتكسرة على الصخور تُشتِّتُ أفكاره. اشتدَّت الريح، وسرعان ما تحولت إلى رياح جنوبية باردة. غادر العُشَّ من دون أن يدري إلى أين، فقد شعر برغبةٍ في المشي، وهو أمرٌ يُحسنه، بلْ يُتقنه. إنَّه يركض أسرع من كل الطيور التي يعرفها، وربَّما تكون تلك هي موهبته، على الرغم من أنَّها لا تُذكَرُ مقارنةً مع إعاقته.

لم يكن قد ابتعد كثيراً بعدُ عن العشِّ عندما سمع بَقْبَقَةً خلف الشُّجيرات. بَقْبَقْ! مرَّت لحظة صمت، ثمَّ سمع البَقْبَقَةَ مرَّةً أخرى. صعد المخلوق الصَّغير بِمَشَقَّةٍ إلى صخرةٍ مُنخفضةٍ، وقفز إلى بِركةٍ مُوحِلةٍ، ثُمَّ كافَحَ ليصل إلى السَّطح، وتسلَّقَ إلى الأعلى، وتَخبَّطَ في البركة مرَّةً أخرى، إلى درجة أنه كاد يغرق. راقب الطائر هذا

وهو يتكرَّرُ مرَّةً تلو أخرى.. لاحظ المخلوق الصَّغير أنَّهُ مُراقَبٌ، لكنَّهُ لم يأبه لذلك.

سأل الطائر:

- هل يمكنني الانضمام إليك؟

- من أين جِئت؟

تَوقَّف المخلوق الصغير لحظةً، ثمَّ تسلَّقَ مرةً أخرى إلى الأعلى.

- جئتُ من هناك.. لقد رحل الجميع وبقيت هنا وحيداً، مللت من الوقوف هناك.

- ولماذا لم تذهب مع الآخرين؟

- لم أتَعلَّم الطَّيران، ولم أكن مستعداً عندما حان وقت الرَّحيل، لكنَّ أمِّي ستعود حتماً لاصطحابي. رُبَّما تكون في مكانٍ قريبٍ من هنا. لكن، هل تسمح لي بأن أُجرِّب ما تفعله؟ أقصد أن أجرِّب القفز.

فأجاب المخلوق الصَّغير وهو يشير إلى الماء:

- على الرَّحب والسعة!

قفز الطَّائر إلى الصَّخرة برشاقةٍ.. لم يكن الأمر صعباً بالنِّسبة إلى حجمه.

- والآن؟

شَجَّع المخلوق الصغيرُ الطَّائرَ وهو يقفز مُتحمِّساً:

- اقفز الآن إلى الوحل.. اقفز!

وقفز الطائرُ فسقط جالساً في بركة الوحل لأن البركة كانت صغيرة بالنسبة إلى حجمه، فتطاير الوحل من حوله.. فقال المخلوق الصغير بِخيبةِ أملٍ:

- لقد دمَّرتَ المكان، ولم يعد صالحاً للقفز.

سأل الطَّائر:

- لماذا كنت تقفز في تلك البركة؟

- رُبَّما يكون من الغباء القفز في الوحل.

- هل تعتقد ذلك حقّاً؟

- بالتأكيد! القفز في الماء أفضل بكثيرٍ، فهناك نستطيع السِّباحة.

قال الطائر وهو ما يزال يجلس في الوحل:

- أنا طائرٌ ولا أعرف السباحة جيداً، لكنَّني استمتعت بالقفز لأنَّني أحسست بأنني أطيرُ للحظةٍ خاطفةٍ على الأقل.

سأل المخلوق الصغير مُستغرباً:

- هل أنتَ طائر؟

- أمِّي تُحلِّق في الجوِّ عالياً من دون أن تحتاج إلى صخور تقفز منها.. تستطيع أن تنساب في الجوِّ ساعاتٍ طويلة من دون أن تحتاج إلى تحريك جناحيها.

وثَبَ المخلوق الصَّغير بضع وثباتٍ مقترباً من الطائر، ثم نظر إليه من رأسه إلى أخمص قدميه.

حينئذٍ سأل الطائرُ المخلوقَ الصغيرَ:

- هل رأيت ذلك الطائر الكبير ذا الريش البني والأبيض الذي يطير مع طائر آخر أصغر منه يشبهه تماماً؟

- نعم رأيته.. أعتقد!.. لستُ واثقاً!. عندما أرى طائراً أقفز من فوري وأختبئ، فقد علَّمتني أمِّي أن أخاف من كلِّ شيء يطير في الجو، لذلك فإنني لا أتذكَّر شكل الطيور.

سأل الطائر:

- وماذا عنك؟ أيُّ مخلوقٍ أنت؟ ولماذا تقفز في الوحل إذا كنت تعتقد بأن ذلك ضرْبٌ من الغباء؟

- إنَّه ضفدع.

جاء الصَّوتُ من وراء الشُّجيرات.

- وهو ابني للأسف..

المخلوق الآخر الذي ظهر من وراء الشُّجيرات يشبه تماماً المخلوق الصَّغير، لكنَّه أكبر منه بكثير. تابعت الضفدعة الأم قائلة:

- أنا أيضاً أَوَدُّ أن أعرف السَّبب الذي يجعله يقفز في الوحل طول الوقت.. لقد قلت له مراراً إن القفز في الوحل أمرٌ سخيفٌ. قفز ذات يوم إلى بركة الوحل مصادفة وكاد يغرق، لكنَّهُ عاد للقفز إلى الوحل مراتٍ مُتكَرِّرةً، غير أنني لا أعرف سبب ذلك.. لا ينبغي ارتكاب الخطأ نفسه مرَّتين!.

فأجاب الضفدع الصَّغير:

- أعرف ذلك، ربَّما ارتكبتُ خطأً، لكنَّهُ خطئي أنا. الأمر يتوقَّف على الطَّريقة التي ننظر بها إلى الموضوع. إذا ارتكبتُ خطأً

باختياري وبمحض إرادتي فإنَّه لا يكون خطأً؛ وإنَّما اختياراً، أو هوايةً، أو حتَّى أسلوبَ حياةٍ. وإذا بدأ الآخرون يفعلون الشَّيء نفسه فإنَّه يُصبحُ تقليداً حينئذٍ. بل قد يتحوَّل إلى عادة يستحيل تغييرها!

قالت الضّفدعة الأمُّ مُتذمِّرةً:

- هل سمعت ما قاله؟ فمٌ صغير تخرجُ منه كلمات كبيرةٌ! سأذهب الآن، وإذا لم تأت معي فإنني سأتركك وحدك هنا.. سيحلُّ الظلامُ قريباً.

أدارت الضّفدعة الأمُّ ظهرها واستعدَّت للوثب قبل أن تُكملَ جُملتها.

- هل رأيتم...؟

فقالت الضّفدعةُ الأمُّ مُقاطِعَةً وهي تُشير إلى الشَّمال:

- نعم، سمعت سؤالك. أعتقدُ بأنَّ مُعظمَ الطُّيورِ هاجروا إلى الشَّمال لقضاء فصل الشتاء هناك..

ثمَّ وثبتْ مُقتربَةً من الطائر، ونظرت إليه بإمعان من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم سألته بنبرةِ شكٍّ:

- هل أنت طائرٌ حقّاً؟

أجاب الطائر الصَّغير وهو يضرب بجناحيه في الهواء:

- نعم.

فقالت الضفدعةُ بسُخريةٍ:

- شكلك يوحي بأنك مخلوق غريب.

وثَبَ الضِّفدعان مُبتعدَيْنِ، وخفت صوتهما وراء صوت الأمواج المتكسِّرة على الصُّخور.

•••

بقي الطائرُ واقفاً في مكانه من دون أن يتحرك، ومن دون أن يتفوَّه بكلمةٍ واحدةٍ، ومن دون أن يطرف رمش عينه، أحسَّ أنَّه ضائعٌ في شبكةٍ من الأفكار اللامنتهية، والمرتبطة بكلِّ شيءٍ، والغائصة في أعماقه في الوقت نفسه.

لاحظ فجأةً أنَّه ينقل بمنقاره أحجاراً صغيرة.. لقد جمع منها كومةً لا بأس بها، وهو لا يَذْكُر حتَّى متى بدأ يجمعها.

تساءل الطَّائر:

- ما الذي أفعله؟ لماذا أتصرَّف بهذه الطَّريقة؟

رمى آخر حجرٍ، ومشى مُتثاقلاً نحو المكان الذي كوَّم فيه الحجارة بشكلٍ دائريٍّ، وجلس داخلها..

أحسَّ بالتَّعب.. كان قبل أيَّام يشعُرُ بالحرِّ، لكنَّه الآن يرتجف برداً.. استلقى على الأرض، وحرَّك جناحيه بضع مرَّاتٍ، وأزاحَ الأحجار التي كانت تضايق جنْبَيْهِ، ونام سريعاً.

رأى في المنام أخته وأمَّه تطيران وسط السِّرب وتتَّجهان صوب الشَّمس. ورأى أنَّه استطاع أيضاً أن يرتفع عن الأرض بجناحيه؛ أنَّه حرَّكهما بسرعة، لكنَّه كان يسقط عند كلِّ محاولةٍ. حاول أن

يصرخ، لكنَّ صوته لم يخرج. ما فتئت الطُّيور في الأُفق تبدو أصغر فأصغر، ورأى على الأرض ضفدعةً كبيرةً تسخر منه.

استيقظ فجأةً ففرح أنَّ كلَّ شيءٍ لم يكن إلاَّ حلماً، لكنَّه كان يتصبَّبُ عرقاً. أصبحت برودة الريح الليلية أشدَّ من ذي قبل.

استيقظ عدَّة مرَّاتٍ تلك الليلة، وتذكر الليالي الآمنة الدَّافئة التي قضاها تحت جناحي أمِّه، ملتصقاً بجنبها. لقد مرَّت تلك الليالي بسرعةٍ كأنَّها لم تكن. حلمَ بالتَّحليق فوق الجزيرة، والنظر من الأعلى إلى جبال الجليد التي ترتفع في البحر، كما رأى في المنام مئاتٍ من الطيور المهاجرة، كان من بينها أمه وأخته وطيور الأعشاش القريبة من عشِّه.

استيقظ على ألمٍ حادٍّ في رقبته؛ كان الألم شديداً إلى درجة أنَّه قفز من مكانه ووقف على رجليه من فرطِ الصَّدمة.. قَفْزَتُهُ المفاجئة أخافت الغراب الذي نقر الطائرَ لأنَّه ظنَّه ميتاً. تراجع الغرابُ عدَّةَ أمتار إلى الوراء، في اللحظة ذاتها نفش الطائرُ ريشه متَّخذاً وضعية الدِّفاع. كان ريش عنقه وكتفيه منفوشاً، وكان رأسه ومنقاره مندفعين نحو الأمام.. خفض الغراب جناحيه متَّخذاً وضعية الخُنوع.. ربَّما يكون الطَّائر قد نقر الغرابَ بالغريزة!

قال الطَّائرُ متذمِّراً ومستغرباً:

- ما الذي فعلتَه؟!

فأجاب الغراب وهو يتجنَّب النظر مباشرةً إلى عيني الطَّائر:

- لقد ظننتُك ميتاً.

- ألا تُفرِّق بين النَّائم والميت؟ لقد كنتُ نائماً!

ما زال الطَّائر يتذكَّرُ ما أخبرته به أُمُّه عن الغربان: «رغم أنها حكيمة وقوية، إلاَّ أنها تأكل الجيفة والنُّفايات. تجدها دائماً وسط النفايات الفاسدة كريهة الرَّائحة.. كما أنها لا تستفيد من موهبة الطَّيران التي تملكها!».

قال الغراب:

- نمتَ هنا؟ وحدك؟ لا يكون بنو جنسك فُرادى عادة.

- ربَّما أكون قد ضللت الطَّريق، لكنَّني لم أمت.

- الفرق في حالتك بين ضلال الطَّريق والموت مسألة وقتٍ فقط.. يمكنني الانتظار.

- صدَقَت أُمِّي بشأنك، فأنت لا تأكلُ إلاَّ الجيفة، ولا تُحلِّقُ في الجوِّ أبداً.

رفع الغراب جناحيه ورأسه، وقفز حول الطَّائر واثباً، ثمَّ بدأ يخفض ريشه المنفوش. بدأ الطَّائرُ في الوقت ذاته يخفض ريشه المنفوش أيضاً.

- لكنَّنا نعيش طويلاً، نحن نعيش حياةً أطول بكثير من باقي الطيور.. ليس في حياتنا مخاطرةٌ، وليس فيها قلقُ الخروجِ إلى الصيد. نجد دائماً شيئاً أفضل عن الآخرين.. من يطِرْ طَيراناً منحدراً، يعِشْ طويلاً!

دار الطائر في اتجاه الغراب لكي يُبقي عينه عليه، على الرغم من أنَّه لم يعد يشعر بأنَّه في خطر:

- أنا أفضِّل التحليق عالياً، وأُقبل على الحياة بشهية مفتوحة؛ وعندما يحين أجلي لا أموت عجوزاً ضعيفاً، ولا أموتُ في مكانٍ تتجمع فيه كائنات مثلك لتأكل رُفاتي.

- أمثالي! ما المشكلة في أكل الأموات؟ نحن نُنَظِّف العالم.

- لا أعرف.. أتخيَّلك وأنت تلتهمني وتهضمني، وأتخيلُ أنَّني أصبح جزءاً منك أنتَ الذي تنتظر أن يموت أحدٌ أو أن تُلقى إليك بعض الفضلات...

بينما كان الطائر يتكلَّم، اقترب الغراب منه وتفحَّصه جيداً:

- منظرك غريب! رأسك يبدو رأس طائر، وقدماك كذلك، لكن جناحيك صغيران، وجسدك سَمين... لا أعتقد بأنَّك ستستطيع الطيران يوماً ما، لكنَّك تتكلَّم كأنَّك عقاب.

حدَّق الطائر في الغراب لبعض الوقت، ثمَّ بدأ يتفحَّص جناحيه. رفع جناحه الأيمن، ثمَّ رفع جناحه الأيسر، وأدار رأسه من ناحيةٍ إلى أخرى حتَّى يرى بشكلٍ أفضل.. نظر بعد ذلك إلى قدميه اللتين تختفيان جزئياً تحت بطنه.. غريبٌ أنَّه لم يتفحَّص نفسه بهذه الدِّقَّة من قبل!

شعر برعشة في ظهره، فأحنى رأسه ببطءٍ، وثبَّت نظره في الأرض، وترك جناحيه يتدلَّيان بفتورٍ قرب جنبيه. وماذا لو كان

الغُراب على حق؟! ماذا لو لم تكن مشكلته في تعلم الطيران، بل في جناحيه القصيرين؟

طرد الطَّائرُ الفكرة من رأسه قبل أن تسيطر عليه.. استجمع قوته، ورفع رأسه مرَّةً أخرى، وقال:

- أختي وأمِّي من أفضل الطيَّارين في العالم.. لقد خرجتا في جولة قصيرة، وستعودان قريباً. لقد تقاعست عن تعلُّم الطَّيران، كما أنَّني ... كما أنَّني منذ صغري سمينٌ بعض الشَّيء.

اقترب الغراب أكثر من دون أن يتوقف عن تفحَّص الطَّائر:

- يبدو أن الأمور قد اختلطت عليك، أليس كذلك؟! أنا أعرف عائلتك علم اليقين، لكنَّني لم أرَ أحداً منهم يطير أبداً.

قال الطَّائر وكأنَّه لم يسمع ما قاله الغراب:

- كلُّ ما أحتاج إليه هو مكان عالٍ أقفز منه.

بدأت بذرة الفكرة تنبتُ في ذهنه.. لقد قال ذلك بديهياً ومن دون تفكير، لكنَّ الفكرة أصبحت تبدو له معقولةً.

•••

المكان الذي يدور فيه الحديث بين الطائر والغراب يبدو من الأعلى صغيراً وبعيداً جداً..

تقع الجزيرة التي ولد عليها الطائر في الجزء الشمالي من القطب الجنوبي، بحيث إنَّ جنوب أمريكا، وجنوب إفريقيا، والهند، وأستراليا تبعد عنها بنفس القدر تقريباً. الجزء الأوسط

من الجزيرة يتَّخذُ شكل دَمْعَةٍ، ويتكوَّن من صخور عملاقة. أحد أطراف الجزيرة ضيِّقٌ ويرتفع عالياً نحو السَّماء، ثمَّ يتقوَّسُ إلى الأسفل مكَوِّناً جزءاً أوسطَ، ويعود ليتوسَّع إلى أن يلتقي بالبحر. تبدو الجزيرة من بعيد كدمعةٍ سقطت من السَّماء؛ كأنَّها دمعة جمَّدتْها الآلهة قبل أن تلتقي بالبحر بلحظةٍ واحدةٍ. هذه الجزيرة الوحيدة بعيدة جدّاً عن اليابسة، إلى درجة أن سُكَّانها لا يرون إلا عدداً من الجبال الجليدية التي تسبح ببطءٍ هنا وهناك خلال أيام الصَّيف المعدودة على رؤوس الأصابع، قبل أن يعود البحر ليتجمَّد من جديد.

موقع الجزيرة الفريد من نوعه يجذب إليها مختلف أنواع الطيور؛ بعضها يتوقف فيها ليأخذ قسطاً من الراحة خلال رحلة هجرته إلى الشمال، فيما تعود إليها بعض الطيور الأخرى في فصل الصَّيف لتضع عليها بيضها وتشهد خروج فراخها إلى العالم، في ذات المكان الذي رأى فيه النور هذا الطائر نفسه..كما أنَّ على الجزيرة بعض الحيوانات الصَّغيرة التي لا تغادرها أبداً.

اضطر الطائر إلى أن يأخذ عدَّة استراحات وهو يتسلَّق التَّل ممَّا جعله يفكِّر:

ماذا لو أصابه التَّعبُ وهو يطير عالياً في الجو؟! عليه أن يُحرِّك جناحيه الصَّغيرين بسرعة كبيرة لكي يستطيعا أن يحملا جسده الثَّقيل في الجوِّ. كان عليه أن يتدرَّب أكثر. ينبغي أن يحُطَّ على مكانٍ مُرتفعٍ حتَّى يكون مستعداً للإقلاع من جديدٍ. لكنَّهُ إذا أراد

اللِّحاق بأُمِّه وأختِه فإنَّ البحر أمامه على مدِّ البصر، وماذا لو اضطرَّ للتَّوقف على جبل جليدي؟! ... الجبال الجليدية لا تتحمَّل الأجساد الدافئة!

تابع الطائر التَّسلق بعد أن ارتاح بما يكفي.. وصل إلى مكانٍ قليل الشجر، وهناك وقع بصره على صفٍّ نمل، فانقطع حبل أفكاره. رأى صفّاً يسير من اليمين إلى اليسار، وآخر يسير مسرعاً في الاتجاه المعاكس، ورأى كيف كانت قرون استشعار النمل يلمس بعضها بعضاً بين الفينة والأخرى.

سمع الطائر أن تخطّي صفوف النَّمل يجلب سوء الحظ. وعلى الرغم من أنَّه لا يؤمن بمثل هذه الخرافات إلاَّ أنه الآن في حاجة ماسَّةٍ إلى الحظِّ.. لذلك قرَّر أن يـمُرَّ من طريق آخر.

بدت فكرة إيجاد طريق آخر سهلةً لأوَّل وهلةٍ، لكنَّ الطَّائر لم يَرَ نهايةً لصفِّ النَّمل الذي التفَّ حول الشجيرات، وفوق الصخور، ثم تواصل خطّاً مستقيماً، والتفَّ بعد ذلك حول شجيرةٍ أخرى، وهكذا على مدِّ البصر.

- انتبه!

صوتٌ قويٌّ حادٌّ جعل الطَّائر يتجمَّدُ في مكانه!

- كِدتَ تدعسني!

كانت نملةٌ صغيرةٌ تجلس على قارعة الطَّريق بسلامٍ، وكاد الطَّائر يدعسها برجله اليمنى.

- أنا آسف، لم أنتبه لوجودك.

- لأنَّك تسير كمن يمشي في أثناء نومه.

- جماعة النمل تسير مسرعةً في صفٍّ واحدٍ جيئةً وذهاباً، لذلك لم يخطر في بالي أن تكون إحداهن جالسة هنا. إلى أين يذهبن؟

- من تقصد!؟

- النمل، بنات عشيرتك.. لماذا لم تذهبي معهن؟

أجابت النَّملة:

- لقد خرجْن لأداء شعائر الحج..

جلس الطَّائر على الأرض يراقب النمل الذي يسير صفّاً صفّاً ذات اليمين وذات الشمال.. يبدو أن النمل لم يُعِرْ أدنى انتباه لما يجري حوله.

تابع الطَّائر سير الصَّف المتَّجه إلى الشمال إلى أن لم يعد يرى حركته، ثم انتقل إلى الصَّفِّ المتَّجه إلى اليمين إلى أن اختفى وراء شُجَيْرةٍ صغيرة.

- إلى أين؟

- لم يَعُدْ أحدٌ يعرف، فقد دأبنا نحن معشر النمل على الخروج بهذه الطَّريقة منذ آلاف السِّنين. في البداية، كان ذلك طقساً دينيّاً نقوم به، كنَّا نخرج لأداء الحجِّ خلال أيَّامٍ محدَّدةٍ في مكانٍ مقدَّسٍ، فننشد الأغاني، ونرفع أصواتنا بالترانيم، ونتأمَّل ونتدبَّر للوصول إلى حالةٍ يصفو فيها الذِّهن، وتتحرَّر فيها الرُّوح. كنَّا نسير مسافةً

طويلة طولها يساوي محيط الكرة الأرضية، وهذا يرمز إلى رحلة الروح. كانت ثمَّة كلمة مقدَّسة، كلمة سرية تناقلها الحجاج فيما بينهم، كانت هذه الكلمة تتغيَّر كلَّ مرة تُنقل فيها من شخصٍ إلى آخر.. لم يكن من الممكن نطق تلك الكلمة؛ ليس لشدة سريتها وقداستها فقط ، ولكن لأنها كانت أكبر من أن تُنطق، لذلك كانت تُنقل عن طريق تلامس قرون الاستشعار.

نسي الطَّائر همومه للحظةٍ، واقترب من صفِّ النمل علَّه يسمع شيئاً.

- ألهذا السبب تتلامس قرون استشعارها؟

- نعم، كأنها تحرِّك شفتيها من دون أن تنبس بكلمةٍ، ومن دون حتَّى أن تفكِّر. لم يعد أحد يعرف تلك الكلمة الـمُقدَّسة، فقد نُسيت منذ زمن طويلٍ. وفي يوم من الأيام خطرت على بال أحدهم فكرة: بما أننا نخرج لهذه الرحلة جيئةً وذهاباً على أيِّ حالٍ، فلم لا نحمل في طريقنا شيئاً إلى بيوتنا؛ كأن نحمل غذاء أو مواد بناء. وشيئاً فشيئاً بدأت أعدادٌ أكبر من النَّمل تحمل شيئاً ما في طريقها. وبين فينة وأخرى غيَّر النمل مسالكه وكيَّفها مع أماكن وجود الغذاء أو مواد البناء، وَهكذا نُسيت الكلمة الـمُقدَّسة التي كانت تعطينا القوة والعظمة.

- لم أسمع من قبل بهذه الكلمة العظيمة، ولم أكن أعرف أن من الممكن إيصال الرَّسائل بهذه الطَّريقة.

أجابت النَّملة بحماسٍ وهي تقترب من الطائر وتُحرِّك قرني

استشعارها في الهواء:

- ليس لتلك الكلمة نظيرٌ، وليس لتلك الرِّسالة مثيل. قرون الاستشعار بالنسبة إلينا هي امتدادٌ لعقولنا؛ ننقل بواسطتها كمّاً هائلاً من المعلومات، وبفضلها نستطيع التعبير عن أعمق أحاسيسنا في لمح البصر. ولذلك فإنَّ تلك «الكلمة» على درجةٍ كبيرةٍ من الخُصوصيَّة، ما إن تُنقل إلى الشخص حتى تذوب في الذكريات والأحاسيس الخالدة، وتُصبح رسالةً جديدةً تماماً لا يمكن للشخص استقبالها إلاَّ إذا كان في داخله مُتَّسعٌ كافٍ: إنَّها رسالة تُغيِّر مستقبل المرء تغييراً كلياً.

ثم عادت النملة إلى مكانها، وجلست بهدوء.

خفضت النملة صوتها، وتابعت حديثها قائلةً:

- لذلك أصبحنا بهذا الحجم الصغير، بعد أن كنَّا مخلوقات عملاقة قبل آلاف السنين، وبعد أن خسرنا مكاننا المقدَّس، ونسينا تلك الكلمة. والآن يخرج الجميع مندفعين ليجمعوا الغذاء، وليُكوِّموه في مخازن كبيرة، كما أصبح تلامسُ قرون الاستشعار مُجرَّد عادة، ولم يعد النمل يعرف حتَّى كيف نشأت هذه العادة.

- ولكنَّك لم تشاركي جماعة النمل سيرها.

- لست وحدي من لا يشارك، لقد تعلمت كل شيء من جدَّتي التي تجلس هناك..

قالت النملة ذلك وهي تشير إلى الجانب الآخر، وتابعت:

- جدّتي حكيمة جدّاً، ولذلك فإن حجمها أعظم من حجم الآخرين بكثير. وعلى الرغم من أنها هي الأخرى لا تعرف تلك الكلمة، إلاَّ أن علمها الغزير يكفي ليجعلها أعظم من أي نملة أخرى من عشيرتنا.

نظر الطَّائر إلى الجهة المقابلة للحظة، ثم قال:

- لا أرى شيئاً.

أجابت النَّملة:

- إنها هناك، فوق ورقة تلك الزهرة الصفراء..

- تلك هناك؟! لكنَّ حجمها مثل حجمك، اعتقدتها أكبر من ذلك بكثير!

- كنت أعرف أنَّك لن تلاحظ ذلك.. عندنا حكمة تقول: «لكي ترى العظمة لا بُدَّ من أن يكون بصرك ثاقباً».. ربما يكون السمع أسهل بالنسبة إليك. اذهب وتحدَّث مع جدَّتي.

لاحظت النَّملة أنَّ الطائر ينظر إلى صفِّ النمل بتردُّدٍ:

- لا تقُلْ إنَّك تخاف من أن تتخطَّى صفَّ النمل؟

- يُقال إن ذلك يجلب سوء الحظ، وأنا الآن في أمسِّ الحاجة إلى الحظِّ.

- لا تأبَه لذلك، فنحن من نشر تلك الإشاعة لضمان سلامتنا؛ لأنها تجعل الناس يحذرون فلا يدوسوننا بأقدامهم.

قال الطَّائر في نفسه:

- النمل مخلوقات حكيمة!..

ثم تخطّى صفّ النمل بحذرٍ. انحنى ليتفحّص النملة الجدّة التي كانت مستلقية على ورقة الزَّهرة. فقالت له الجدَّة:

- اقترب أكثر! دُر قليلاً ..

ثم نهض واقترب منها خطوتين.

استدار الطَّائر ووقف مقابل النملة الجدَّة.

- لم يسبق لي أن رأيت أحدكم وحده في هذا المكان المرتفع.. هل ضللت الطريق.

- ربَّما! أنا أبحث عن أمي التي طارت مع أختي في أحد الأيام ولم تعودا بعد. أخاف أن تكونا قد هاجرتا إلى الشمال وتركتاني هنا.

سألته النملة العجوز:

- متى كانت آخر مرةٍ أكلت فيها؟

أجاب الطَّائر بعد لحظة تفكير:

- لا أذكر..

- هذا واضح؛ لأنك تبدو هزيلاً مقارنة مع بني عشيرتك، كما أن الجوع قد يكون سبَب ارتباكك وتشوُّش أفكارك. أعتقد بأنَّك جائع ومُتعبٌ جدّاً. من غير المحتمل، أو بالأحرى من المستحيل أن تكون أمك وأختك قد طارتا، ولكن أريد منك أن تهدأ وتطمئنَّ. أعتقد بأنَّني أعرف أين يمكنك العثور على أمِّك.

- حقّاً؟ هل تعرفين حقاً ؟ هل رأيتها؟ سأل الطَّائر بسعادةٍ.

- لم أقابل أمَّك من قبل، لكنني أعرف أين يمكننا أن نجدها.

- هلاَّ أخذتني إليها؟ أرجوك!

- لا أستطيع أن آخذك، بل يمكنك أنت أن تأخذني. سأريك الطَّريق؛ فأنا أشعر بالملل هنا على أيِّ حال.

أشارت الجدَّةُ للطَّائر، فانحنى حتَّى تتمكَّن من تسلُّق منقاره.. ثم قالت له:

- لنذهب!

وأشارت إلى الوِجهَةِ التي ينبغي على الطائر أن يسير باتجاهها.

- لكن تذكَّر أن عليك أن تُعيدني إلى هنا فيما بعد.

- حسناً.

انطلقا بسرعة كبيرة إلى أسفل التلِّ.

قال الطائر في نفسه:

- لقد ذهبتُ في اتجاه خاطئٍ تماماً!

قالت الجدَّةُ وهي مستمتعة بالركوب على منقار الطَّائر.

- أنا أيضاً جرَّبتَ الصِّيام.. كان هذا بالتأكيد في أيَّام شبابي، أمَّا الآن فإن بطني ستعاقبني إذا توقَّفت عن الأكل في هذه السِّن.

- أنا لم أقصد الصِّيام، لكني في الأيام الأخيرة كنت حزيناً، إلى درجة أنَّني فقدتُ شهيَّةَ الأكل.

ردَّت الجدَّة بقولها:

- مهما كان السبب فإن الصِّيام يُعلِّمك التَّمتُّع بالجوع..

ثم تابعت قائلة:

- كنَّا متعلِّقين بالأكل كثيراً في أسرتي، وفي يوم من الأيَّام أدركت أنَّني لا أعرف ما هو الجوع الحقيقي. علَّمونا أن نستمتع بالغذاء وبالأكل، فكنَّا نأكل لنمنع الجوع لا لنطفئه، وكنَّا - وما زلنا - نقضي وقتاً طويلاً في البحث عن الأكل، وانتقائه، وإعداده وأكله. نأكل حين يأتي وقت الأكل حتَّى وإن لم نكن نشعر بالجوع. عندما صمْتُ لأول مرةٍ أدركت أنني لم أكن آكل لأنني جائعة، وإنَّما لأنني مدمنةٌ على الأكل، لذلك كانت تظهر علي أعراض مثل القلق والغضب وقلة التركيز، إضافةً إلى بعض الأعراض الجسدية، وغير ذلك.

فقال الطَّائر:

- أهذا صحيح؟ لم أكن أعرف ذلك!

- نعم، هذا صحيح.

استدارت النملةُ الجدَّةُ فوق المنقار حتَّى تنظر إلى عيني الطائر مباشرةً، فحاول هذا الأخير أيضاً أن ينظر إلى عينيها، إلاَّ أن عينيه أصيبتا بالحول!. صار منظر الطَّائر مضحكاً، فانفجرت الجدَّةُ ضاحكةً، غير أنَّ ضحكها تحول إلى سعال قويٍّ. وضحك الطَّائر كذلك إلى أن اهتزَّ منقاره، فانزلقت الجدَّة عنه وكادت تسقط لو لا أنَّها عادت وتعلَّقت به في آخر لحظة..

- انتبه قليلاً!

قالت ذلك الجدَّة وهي تتسلَّق المنقار لتعود وتجلس عليه مرةً أخرى.

- ما الذي يُضحككِ؟

- تخيَّلتُ نملةً تتبع نظام حميةٍ غذائية!

هذه المرَّة، حاول الطَّائر ألاَّ يضحك، غير أنَّ بطنه اهتزَّت على الرغم منه.

- أنا آسف.

- كل شيْءٍ نسبيٌّ في هذا العالم.

مرَّا على المكان الذي التقى فيه الطَّائر بالغراب، وتابعا رحلتهما إلى الجهة الأخرى من الجزيرة؛ وهي منطقةٌ لم يسبق للطائر أن زارها.

- لقد وصلنا.. هل يبدو لك المكان مألوفاً؟

نظر الطَّائر إلى ذلك المكان الغريب، وإلى تلك الطيور الكثيرة التي تسلَّقت التَّلَّ الـمُطلَّ على البحر، واستمع إلى أصواتها التي كانت تملأ الجوَّ، والتي أحسَّ أنها تؤدي لحناً مألوفاً على الرغم من أنَّه لم يسمعه من قبل. كان الشاطئُ غاصّاً بتلك المخلوقات ذات الأجنحة الصغيرة، والبطون البيضاء، والظهور السَّوداء، وكانت جميعها تشبه الطائر الصغير تماماً.. لذلك تسمَّر في مكانه من دون حراكٍ ومن دون أن ينبس ببنت شفةٍ!

•••

كانت الساحة تعجُّ بتلك الطيور؛ من المكان الذي وقف فيه الطائر إلى النقطة التي يبدأ عندها البحر، كان بعضها يتجه نحو البحر، وبعضها يسبح في مياهه بين قطع الجليد. كان أحدهم يبني عشَّه بأحجارٍ صغيرة تماماً كما كان هو يفعل بشكلٍ غريزيٍّ. الراشدون منهم يضعون صغارهم بين أرجلهم تحت ثنية في منطقة البطن كأنهم يجلسون فوقهم. رأى أيضاً ثلاث إناث من هذه الطيور يتنافسن فيما بينهن على حضانة فرخ يتيم. فتحت إحدى الأُمَّهات فمها عن آخره حتى تُطعِمَ صغيرها غذاءً طحنته له مسبقاً، فيما كانت أمٌّ أخرى نحيفةً تحاول الفرَار من صغيريها السمينين اللذين يتبعانها طوال الوقت يريدان المزيد من الأكل.

كان هذا المكان الواسع أشبه بروضة أطفال من كثرة الفراخ المتجمعين فيه. زغب بعض تلك الفراخ لم يسقط بعد، وقد كان شكله يشبه شكلها هذا ذات يوم، وبعضها أسقطت زغبها وصارت تشبه خريطةً ثلاثية الأبعاد تمشي على أرجلها.. كانت الطيور الراشدة تدفع الصغار الكسالى حتَّى يتحرَّكوا وتنمو عضلاتهم.

هبَّت رياح ذات صفير طَيَّرت ريش الطيور، فأغلقت صغار الطيور رموشها مثلما كان يفعل هو من قبل.. إنَّهم لا يعرفون أنهم لن يطيروا أبداً. هناك قرب مياه البحر كان الطائر الأب يحاول دفع صغيريه لتعلم أول درس سباحة. امتلأ الجو بالصياح؛ حيث كان الآباء يدعون صغارهم والصغار يطالبون بمزيد من الأكل؛ وحيث كانت بعض الذكور تصيح بأعلى صوتها لإثارة انتباه الإناث، أحد

الذكور أطلق العنان لحلقه وهو يرفع رأسه ويوجه منقاره نحو السماء.. ملأ رئتيه بالهواء وأفرغهما بحماسةٍ شديدةٍ فظهرت على جهتي عنقه كُتْلَتَان كبيرتان تتحركان بنفس الإيقاع كأنَّه يصارع قدَراً لم يختره يوماً؛ وكأنَّه يُصارعُ شيئاً ما في الجوِّ لم يرَهُ من قبل.

على الرغم من أن الطائر سمع هذه الأصوات الآن لأول مرة في حياته ولم يفهمها، إلاَّ أنها لم تكن غريبة بالنسبة إليه.. كأنَّه سمعها في أحلامه، أو أنها كانت في الخلفية يوماً ما، في مكانٍ ما وهو يستمع إلى شيء آخر.

استرخت عضلاته شيئاً فشيئاً، وسقط على الأرض ببطءٍ كأنَّه يذوب، ثم قال بصوت منخفض:

- عندما كنت وحيداً كنت مُعاقاً أعرج، والآن بما أن هنا آلافاً منّا فقد أصبحنا قبيلةً.

- ضللت الطريق فحسب، ولم تكن مُعاقاً.. لم تكن تعرف إلى أيِّ جنسٍ تنتمي.

- أحسُّ بأنني الآن أكثر ضياعاً من ذي قبل. كان أسهل عليَّ أن أفكِّر بأنني في حاجةٍ فقط إلى عزيمةٍ أكبر، وإلى مكانٍ مرتفعٍ أقفز منه، وإلى الأملِ والحظِّ الجيِّدِ. أمَّا ما أنا فيه الآن فهو أشبهَ بالكابوس. ما هذا المكان؟ أهو مُخيَّمٌ للمعاقين؟ هل أنتمي إلى هذا المكان حقّاً؟! يا إلهي من أكون؟ وأيُّ شيءٍ أنا؟

- أفهم ما تقصده، فأنا أيضاً لم أحسَّ يوماً بأنني أنتمي إلى عشيرتي. الأمر لا يتعلَّق بجسدك، بل إنَّ شيئاً ما في داخلك يتغيَّر:

إيمانك، أو أفكارك، أو إن طريقة نظرتك إلى الأمور قد تجعلك غريباً وسط أهلك، فتصبح عدُوَّ من كنت تعدّهم أصدقاءك، ويصبح وجودك تهديداً لأمانهم. سلامتُك لا تهمُّهم، وسرعان ما تجدُ نفسك تُتَّهمُ بجريمة الاختلاف.. جلاَّدُك يُشبهك تماماً في الشَّكل، لكنه يفكّر بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً. يحكم عليك قاضٍ لا يحبُّ طريقة تفكيرك، أو لا يُحبُ أن تفكِّر أصلاً.. هو يشبهكَ في الشَّكل تماماً، لكنَّه لا يشاطرك الأحلام ولا الأفكار.. ذلك القاضي يُمثِّل نظاماً بناه أشخاصٌ يُشبهونك تماماً في الشَّكل.

- أنت تجعلينني أقلق أكثر.. ما أنا فيه الآن كأنه حلم.. أنا واثق بأنني لم أزر هذا المكان من قبل، وأنَّ أمي لا تشبه هؤلاء. يمكنني أن أشُكَّ بذاكرتي في كل الأمور، ما عدا صورة أمي التي نقشت بعمق في ذاكرتي وأصبحت جزءاً مني.. أمي كانت أوّل مخلوقٍ رأته عيناي عندما جئت إلى هذا العالم. كانت جميلةً جداً، إلى درجة أنَّ الشمس كانت ترفض المغيب لكي تتمتَّع بجمالها. أمِّي كانت تحلِّق في الجو عالياً فوق الغيوم، وكانت قويَّةً جداً إلى درجة أنها تستطيع أن تحمل هذه الجزيرة كلَّها.

- ربما يكون أحدهم قد تبنَّاك، أو أن الجوع جعلك تهذي.. لا أقصد الجوع الجسدي، إنما الجوع المعنوي.. أو ربما يكون العطش؛ العطش الذي تشعر به روحك.

- أليس غريباً أنَّني أرى الآن شاطئاً يَغُصُّ بأمثالي ولا أستطيع أن أشعر بالسَّعادة على الرغم من أنَّ من المفروض أن أكون

سعيداً؟ أحسُّ الآن بِوحدةٍ أكبر؛ وحدَةٍ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.. أشعر بأنني فقدت شيئاً ما.

- الأمل... أعتقد بأنك فقدت الأمل.. فقدت الأمل بأن تطير يوماً ما، لم يعد في إمكانك بعد الآن أن تُنكِرَ هُويَّتك.

- لماذا أنا بالذَّات؟ لم لا تكون أختي؟ أو ذلك الفرخ الـمُزعِج الذي كان يسكن في العشُّ المجاور لعشنا؟ كلُّهم الآن يطيرون عالياً في مكانٍ ما.. لماذا عليَّ أنا بالذَّات أن أشذَّ عن القاعدة؟!

- أفهمك يا بُنيَّ.. لكن هلاَّ أعدتني إلى مكاني قبل أن يحلّ الظلام؟ يمكنك أن تعود إلى هنا بعد ذلك إذا أردت..

قالت الجدّةُ ذلك وهي تستعدُّ لركوب الطائر من جديد.

بدأا رحلة العودة في صمتٍ.. وبعد فترةٍ سأل الطائر النَّملة الجدَّة التي تجلس هذه المرة على رأسه:

- قولي لي بصراحة، هل أنا طائرٌ في نظرك؟

- نعم، أنت طائر.

- ولماذا لا أستطيع الطَّيران إذن؟

- لا أعرف.. لم أرَ يوماً أحداً من بني جنسك يطير. سمعت أن أسلافك اختاروا أن يبقوا على الأرض، ثمَّ تعلَّموا السباحة وأصبحوا يحسنونها أكثر فأكثر إلى أن أتقنوها.. ربما كانوا مجبرين.

- وماذا لو اخترتُ الطيران وأجبرتُ نفسي عليه؟

أجابت الجدّةُ مبتسمةً:

- قرارك لن يجعل أجنحتك تطول خلال أيام حياتك.

- هل انكمشت أجنحة أسلافي بعدما قرَّروا البقاء على الأرض؟! هذا إذا كنت أنتمي إلى جنسهم أصلاً!.

عندما وصلا كانت صفوف النمل لا تزال تتحرك جيئةً وذهاباً بالتَّفاني نفسه الذي كانت عليه عند ذهابهما.

قالت الجدّةُ التي وصلت الآن إلى مكانها المفضَّل في لمح البصر:

- وهذه عشيرتي، انظر إلى الجدِّيَّة التي يعملون بها، كأنَّهم جسدٌ واحدٌ. ألا تبدو جماعة النمل كأنَّها سيلٌ لا ينقطع؟! يعملون بلا توقُّف ليتجنَّبوا لحظات الفراغ التي قد تُشكِّك في كلِّ ما يفعلونه. في مجتمع النمل لا وجود للفرد كفردٍ، وإنَّما كمُمثل يلعب دوره في مسرحيةٍ لا يتفرَّج عليها إلاَّ النمل أنفسهم.. يغرقون مثل قطرات الماء في النهر.. لا تتوقَّف قطرات الماء لتقول: «انتظروا لحظةً، إلى أين نحن ذاهبون؟! ولماذا نحن ذاهبون؟!.» النهر على الأقل يتحد بالبحر حتى يصبح جزءاً من عظمته؛ أما نحن معشر النمل فنسير من أجل أن نسير لا غير! نخزِّن الغذاء لكي نأكل، ونعيش حتَّى نتمكن من تخزين مزيد من الغذاء. لا تشكُّ أي واحدة من جماعة النمل ولو للحظةٍ واحدةٍ في أنَّ لذهابها وإيَّابها هذا قصداً غير تجميع الغذاء. لا تتساءل أيّ واحدة منهنَّ عن سبب تلامس قرون استشعارهن من دون الحاجة إلى نقل أيّ رسالة..

وما خفي كان أعظم!

توقَّفت الجدّةُ لحظة ألقت فيها نظرةً على الطائر، ثم أشارت إلى ما تحت الأرض، وتابعت قائلةً:

- هناك في الأسفل يسود نظامٌ رهيب.. لكلِّ فردٍ هناك دوره: فمن ناحيةٍ، هناك الجنود؛ والشغالة؛ والمربية التي تهتم بالبيض؛ ومن ناحيةٍ ثانيةٍ هناك صاحبة الجلالة، قائدة مملكة ما تحت الأرض، وآلة التوالد فيها. كلُّ فردٍ من أفراد هذا المجتمع يولدُ بوظيفةٍ معيَّنةٍ لا يمكنه أن يُغيِّرها.. أمَّا العُقلاء والمفكِّرون فقد انقرضوا!

سأل الطَّائر:

- ما معنى كلمة انقرضوا؟!

- أيْ حدث لهم ما حدث لأجنحةِ أسلافك، ولم يعد لهم وجود.

نظرت الجدّةُ الآن إلى الطائر، وقالت له:

- يا صديقي! ابحث عن جوهر الأمور.. السماء تغُصُّ بالطيور التي تحلِّق عالياً والتي قد تكون أفضل بني جنسها في قدراتها على التحليق، ولكن أين تستعمل هذه القدرات الخارقة؟! في البحث عن الديدان وعن الجيفة، ولكي تملأ بطونها بها؛ أو للبحث عن شريك حياتها.

ردَّ الطائر:

- لا أعرف إذا كان في إمكاني نسيان حلمي بالطيران بهذه السهولـة.. عليَّ أن أجـد حلاً للمسألة.

ثم تابع قائلاً:

- ليتني أعرف السبب الذي جعل أسلافي يفقدون الرغبة في الطيران! ربما تمكَّنت من إيجاد حلٍّ لو عرفت السبب. ربَّما يكونون هم أيضاً قد نسوا الكلمة المقدَّسة التي كانت تعطيهم القوَّة. آهٍ لو كانت ثمَّة طريقةٌ ما... أيُّ طريقةٍ مهما كانت أتمكَّن من خلالها أن أغيِّر قدري.

قالت النَّملة الجدَّةُ:

- لست الوحيد، أعرف رجلاً في مثل حالتك؛ ليس له أجنحة لا طويلة ولا حتَّى قصيرة، لكنَّه أَفْرَغَ طيراً عملاقاً جامداً وتحكَّم فيه.. يأمر الرجل ذلك الطائرَ فيطير به ويأخذه إلى حيث يشاء. وعندما يَحُطُّ الطائر يُرسيه الرجل في مكانه.. يُطلق الرَّجل أسماءً على كل ما حوله حتَّى يستطيع السيطرة عليها.

- السيطرة على ماذا؟

- علينا، وعلى كل من يعيشون على هذه الجزيرة.

- رُبَّما يكون هو من أخذ أجنحتنا؟

- لا أعرف، لكنَّه يعرف شيئاً عن الأمر بلا شكٍّ.

- ينبغي أن أذهب للبحث عنه.

- لا أستطيع أن آخذك إلى المكان الذي يسكن فيه، لكن ابحث عن مكانٍ فيه رُكامٌ من الأشجار. إنه يعيش داخلها ويحرقها كل يوم.

•••

ابتعد الطائر عن النمل وعن مشاكلهم، لكنَّه بقي يفكر في النملة الجدَّة، وفي كلامها، وفي كل ما حدث له هذا اليوم.

حلَّ الظلام وانتشر مثل جليد أسود وطغى على الجو.. لم يعد الطائر مقتنعاً بجدوى محاولة الطيران من أعلى صخرةٍ، لكنَّه متأكِّدٌ من أمرٍ واحد هو أنَّه لا يريد الذهاب عند الآخرين المتجمِّعين على الشاطئ.. أحسَّ بالريح الليلية شديدة البرودة تتغلغل إلى عظامه وتُجمِّدها.

وجد غاراً مريحاً جدّاً، فأزاح منه بعض الأحجار وقليلاً من التُّربة وخلد للنَّوم فوراً كأنَّ جميع الأفكار العميقة التي كانت تشغل باله تبدَّدت فجأةً.. رأى في منامه أحلاماً عديدة تلك الليلة، لكنَّه لم يتذكَّر شيئاً منها في الصباح.

عندما استفاق كان أول شيءٍ وقع بصرهُ عليه هو عنكبوتاً لم تزل مختبئةً هناك تحت أجنحة الظلام منذ مساء البارحة.

تساءل الطائر في نفسه:

- يا لها من مخلوقةٍ عجيبةٍ! تُرى هل نما جسدها بعيداً عن أرجلها، أم أنَّ أرجلها نمت بعيداً عن جسدها؟

ثم سألها:

- كيف تعلَّمت البقاء مُعلَّقةً في الهواء بهذه الطريقة من دون أجنحة؟

- لدي رباط خاص.. إنَّه بيتي الذي كدت أن تُدمِّره كله مساء

أمس.. بسببك قضيت معظم الليل في إصلاحه.

- أنا آسف. لم أنتبه لا لك ولا لبيتك، فقد كان الظَّلام حالكاً عندما أتيتُ، زيادةً على أنَّني كنتُ مُتْعباً جداً.

أمعن الطَّائر النظر في العنكبوت وفي محيطها، ثم قال:

- في الحقيقة، ما زلت لا أرى بيتك! لا أرى سواك في الهواء..

- وهذا هو المطلوب؛ لأنَّك لو رأيته بسهولة لانعدمت الفائدة منه؛ لأن الحشرات لن تَعْلَقَ به.

- فهمت، بيتك في الواقع فخٌّ!.

- لم أتمكَّن من اصطياد أيِّ فريسةٍ منذُ زمن.. أفكِّر في أن آكل إحدى أرجلي لأسُدَّ بها جوعي.. آخرُ وَجْبَةٍ تناولتُها كانت زوجي، وقد كان هذا منذُ زمنٍ طويلٍ، إلى درجة أنَّني لا أتذكَّر متى كان ذلك.

- لماذا بنيت بيتك في مكان غير مناسب لاصطياد الفرائس؟

- أمي وجدَّتي كانتا تسكنان هنا، وأنا أتابع تقاليد عائلتي. في الواقع ليس لمكان سكني أيُّ أهميَّةٍ؛ لأن الحشرات قليلة في الجزيرة كلِّها.

بدأت أشعة الشمس تتسرَّب إلى الغار فانعكست على بيت العنكبوت.

- أستطيع الآن أن أرى بيتك.. إنَّه جميل.. لم يسبق لي أن رأيتُ شيئاً كهذا.. هل بنيته بنفسك؟

قالت العنكبوت وهي تمشي ببطء إلى الجهة الظَّليلة من بيتها:

- أكره أشعة الشمس؛ لأنَّها تكشف خيوط شباكي..

سأل الطائر:

- إنَّه عجيبٌ! منْ أيِّ شيءٍ بنيته؟

نزلت العنكبوت قليلاً بواسطة نسيجها ذي اللَّون الرَّمادي، وتوقَّفت عند منقار الطَّائر تماماً، واستدارت في الهواء مرَّتين أو ثلاثاً، ثمَّ سحبت نفسها إلى الأعلى ونزلت مرَّةً أخرى إلى الأسفل.

عندها قال الطَّائر:

- لقد فهمت الآن! نسيجك يأتي من داخلك؛ بيتك جزء منك، وأنت جزء من بيتك، كأنَّك تعيشين داخل نفسك.

- أنتشر خارج نفسي ولا أختبئُ مثل السلحفاة.. تخيَّل حمل مثل ذلك البيت طول الوقت! لا أعتقد بأن الحركة تكون سهلةً مع حِملٍ ثقيل كذاك.. زِدْ على ذلك أنها تبدو كأنَّها خائفة من شيءٍ ما.

غيرت العنكبوت موضوع الحديث، فهناك شيء أهم يشغل بالها:

- سوف أجِفُّ لا محالة في غضون أيامٍ قليلة، لكنَّني أريد أن أبدو جميلة عندما يفقس بيضي ويخرج صغاريَ منه. لا أحبُّ أن يأتوا إلى العالم وإحدى أرجلي ناقصة.. ربَّما عليَّ أنْ أنتظر قليلاً هنا وسط...

اختفت العنكبوت في لمح البصر قبل أن تتمكَّن من إنهاء جملتها.. بساطٌ أحمر طويل امْتدَّ فجأَةً فوق نسيج العنكبوت والتهمها، ثُمَّ التَفَّ وعادَ إلى فم الضفدع. سأله الطَّائر:

- لماذا فعلت ذلك؟.

- يجب أن أتغذَّى جيِّداً قبل حلول الشِّتاء.

- لقد كانت لديها عدَّة خطط ومشاريع، وكانت تريد أن تكونَ مثلاً تحتذي به الأجيال القادمة.

- لِكلٍّ واحد منَّا خططه ومشاريعه، ولكن ينبغي أن تكون هذه الأخيرة منسجمةً مع مُخطَّط أوسع كلُّنا جزءٌ منه. تقول أمّي إنَّنا نأكل العناكب والحشرات، وأنَّ الثعابين تأكلنا. أنت أيضاً جزءٌ من هذا الـمُخطَّط الأوسع، وعاجلاً أم آجلاً سوف يأتي دورك وتصبح غذاء مخلوق آخر.

خرج الطَّائر من غاره وأمعن النَّظر في الضِّفدع الذي بدا مألوفاً له.

- هل سبق لنا أن التقينا؟

قفز الضِّفدع مُصْدراً صوت بَقْبَقَةٍ:

- بَقْبَقْ!

- تذكَّرت! أنت من يُحبُّ ارتكاب الخطأ نفسه بمحض إرادته. لقد كَبرتَ كثيراً عمَّا كنت عليه عندما التقينا.

- أنا آكل طول الوقت فهذه آخر أيّام اليقظة، وقريباً سأخلد للنَّوم طيلة فصل الشتاء.

- هل يدوم الشِّتاء طويلاً؟ هذا أوَّل شتاءٍ في حياتي، لذلك فإنني لا أعرف كم يدوم الشتاء

- في الحقيقة، أنا لا أعرف أيضاً، ولا أعتقد بأنَّ أيّاً من الضفادع يعرف، فنحن - معشر الضفادع - ننام كلَّ فصل شتاءٍ.

- يبدو الأمر مُريحاً؛ تنام طيلة فصلِ الشِّتاء وتستيقظ في فصل الرَّبيع.. حياتك عبارة عن سلسلة تتألَّفُ من فصل ربيع يليه فصل صيف، وتتخلَّل هذه الفصول أحلام كثيرة.

ابتلع الضفدع ريقه، واختفت الحماسة من وجهه، ثم قال الضِّفدع:

- لا أعرف إن كنت سأرى الرَّبيع القادم.. تقول أمِّي إنَّنا ننام في الجحر نفسه مع الأفاعي التي تقتاتُ بنا طول الوقت، فنحن - على ما يبدو- نحتاج إلى أن يدفئ بعضنا بعضاً من البرد..

- يبدو الأمر مخيفاً.

تابع الضِّفدع:

- حيلتنا الوحيدة هي أن ننام بعد الأفاعي، ونستيقظ قبلها ببضعة أيام..

كان الطَّائر قد خرج من غاره تماماً، وجلس على صخرة يستمع للضِّفدع وهو يرسم بمخالبه على الأرض..

سأل الضِّفدع:

- ما ذلك الرَّسم؟

- هذا الرَّسم؟ أنا نفسي لا أعرف! عادةً ما أرسم على الأرض عندما أفكِّر في شيءٍ ما. هل تعرف أنت ما هذا الرَّسم؟!

قفز الضِّفدع حول الرَّسم مندهشاً وعيناه جاحظتان ثم قال:

- لم أر مثل هذا من قبل. ربما يكون رمزاً سحرياً، عليَّ أن أذهب الآن للبحث عن غذاء..

وهكذا قفز مُبتعداً.

•••

ومَرَّت الأيام..

تجوَّل الطَّائر في أرجاء الجزيرة يبحثُ عن شيءٍ ما يمكنه أن يُغيِّر مصيره. ما زال يتذَكَّر الأمَّ الوحيدة التي عرفها في حياته، ويحلم أحياناً باللِّحاق بها في مكان ما في الشمال لينعم معها بأشعَّةِ الشَّمس الدَّافئة.

التقى في جولته بحيواناتٍ ومخلوقات مختلفةٍ، وكان في كلِّ مرَّةٍ يحاول الوصول إلى حلٍّ لـمُعضِلَتِهِ. وسط إرهاقه واكتئابه كان يأكل حبة توت أو فاكهةً برِّيَّةً بين فينة وأخرى، إلاَّ أنَّه لم يكن يجد في نفسه شهية للأكل ولا رغبةً في النوم. تعلَّم خلال رحلته أشياء كثيرة عن الجزيرة وسكَّانها، لكنَّه وعلى الرغم من محاولاته المتتالية لم يتوصَّل إلى حلٍّ مُعضلة حياته الأساسية التي ما فتئت تُضايقه؛لم يستطع الإجابة عن سؤالين أساسين هما: من هو؟ وماذا يكون؟..

•••

لم يكن في الكوخ مخلوقات حيَّة، إلاَّ عُصفوراً مُلوَّناً داخل قفصٍ معدني وشجرة صغيرة، أمَّا الباقي فكلُّه ميت. هذا كلُّ ما تمكَّن الطائرُ من رُؤيته من أوَّل نَظرةٍ ألقاها على المكان الذي يوافق وصف النملة الجدَّة: «مكانٌ فيه رُكامٌ من الأشجار، وله باب.. وفي الدَّاخل أخشاب أُحرق بعضها، وبقي بعضها الآخر ينتظر الحرق». لم يَجِدْ أثراً للرَّجل، ولا لذلك الطير العملاق الجامد الذي أخبرته عنه النملة الجدَّةُ.

أثار تغريد العصفور الجميل انتباه الطائر الـمُتطَفِّلِ الحذر، لكنْ سرعان ما تحوَّل التغريد إلى سعال مُستمرٍّ. اقترب الطَّائر من القفص المعدني ووقف صامتاً ينتظر أن يستأنف العصفور تغريده.. كان العصفور المحبوس داخل القفص فائق الجمال ذا ريشٍ ألوانه زاهية..

- هل أعجبَك تغريدي؟!

- كيف تعلَّمت هذا الغناء الجميل؟ غناؤك رائع.

- كان غنائي أجمل بكثير من السابق.. أقصد عندما كنت أعمل كعصفور كناري في منجم الفحم الحجري، لكنَّ تغريد أبي كان الأفضل على الإطلاق..

عاد عصفور القفص إلى السُّعال، وتأمَّل الطَّائر والعصفور بعضهما بعضاً لبعض الوقت. ثم سأله الطَّائر:

- لماذا تنظر إليَّ بهذه الطَّريقة؟

فأجابه عصفور الكناري ذو الريش الأصفر والأخضر:

- بأيِّ طريقة؟

- تنظر إليَّ بعينٍ واحدةٍ، ثمَّ تعود وتنظر بالعين الأخرى.

- أوَدُّ النظَّر إليك من منظورين مختلفين، فأنت طائرٌ غريب جدّاً.

- أليست العينان كلتاهما عينيك؟ كيف يمكنك إذن أن تنظر بهما من منظورين مختلفين؟

- لقد علَّمتُهما ذلك.

قلَّدَ الطَّائر طريقة عصفور الكناري في النَّظر لِلَحظات، ثم قال:

- أعتقد بأنَّني أفهم ما تقصده.. هل يُمكنني تعلُّم التغريد مثلك أيضاً؟

ضاع جواب عصفور الكناري وسط سعاله.. رفع إحدى رجليه في الهواء، وأغمض عينيه، فأدرك الطَّائر أنَّ العُصفور لا يريد متابعة الحديث، فتابع تأمُّل الكوخ.

المكان مليءٌ بالأشياء الغريبة، وأغربها مرآةٌ مُعلَّقَةٌ على الحائط. خاف الطَّائرُ عندما رأى خيالاً يتحرَّكُ، لكنَّه سرعان ما هدأ واقترب بحذرٍ من تلك الظَّاهرة الغريبة. كانت الصُّورة تُقلِّده في كلِّ شيءٍ. نظر إلى نفسه ثمَّ إلى الطَّائر الذي في المرآة، وعاد للنظر إلى نفسه مرةً أخرى. من الواضح أنَّه ينظر إلى صورته، فقد رأى مثلها وهو يُطلُّ ليشرب من البركةِ؛ الفرق الوحيد أن الصورة التي في المرآة أوضح من تلك التي رآها في البركة؛ الطَّائر الذي في المرآة لا يشبه أمَّه أبداً، وإنَّما يُشبه تماماً تلك الطُّيور التي رآها على الشَّاطئ.

لا بدَّ أن شيئاً غريباً حدث؛ شيءٌ ما غيَّر حياته من قبل حتَّى أن يولد. لقد وُلِدَ في الأسرة الخطأ، ولذلك فإنَّهُ لا يستطيعُ استيعابَ حقيقةٍ ربَّما لم تكن لتخطر على باله لو أنَّه ولد في غيرها. أمور حياته اتَّخذت منحىً خاطئاً لكي يُدرِكَ أنَّ الضرر الأكبر قد حدث قبل أن يكون له وجودٌ أساساً. حاول أن يُنكِرَ ما حدث، لكنَّه الآن

يَجِدُ نفسَه وجهاً لِوَجهِ أمام نفسِه.

استغرق في التَّفكير إلى أن لاحظ فجأةً وجود بيضٍ كثيرٍ رُتِّب بعنايةٍ فوق منضدة صغيرةٍ، وَرُسمت على كلِّ بيضةٍ منها علامةٌ زرقاء.. استدار وتوجَّه نحو المنضدة.

الأمرُ صحيحٌ إذن؛ ثمَّةَ علاقةٌ للوحشِ الذي يسكن في هذا الكوخ بمصير الطَّائر! رُبَّما سيكون مصيرُ سائر هذه الفراخ التَّعيسة مثل مصيرِه!.. تَبدو تلك العلامات الزَّرقاء مثيرةً للاهتمام، وقد أحَسَّ قبل هُنيهَةٍ أنَّه رآها في مكانٍ ما من قبل. كانت المنضدة عالية لا يمكنه القفز إليها، لذا قرَّرَ البحث عن شيءٍ يستعمله ليصعد إليها. الكرسي ثقيل جداً لم يتمكَّن من تحريكه، على الرَّفِّ كتبٌ، وفي الغرفة منضدة أكبر. وقف مرَّةً أخرى أمام المرآة، ورأى بطرف عينه البيض الذي على المنضدة، والعلامات الزرقاء التي على كلِّ واحدةٍ منها.. شعر كأنَّ صاعقةً ضربته! لقد أصبح متأكِّداً الآن؛ إنَّها تلك العلامات نفسها التي كان يرسمها على الأرض بلا سببٍ.. لماذا؟ ما علاقته بهذه العلامات؟! هل يتعلَّق الأمر بسِحْرٍ سخَّره ضدَّهُ هذا الوحش؟

تملَّكهُ الغضب، فَفَقَدَ القدرة على التَّفكير.. أسرع إلى الباب، وركض بسرعة لم يسبق له الركض مثلها، جمع قواه، ثُمَّ قفز وحطَّ وسط البيض فانكسر تحته.. تابع تكسير باقي البيض بمنقاره وبجناحيه القصيرين.

بعد تكسير البيض كلِّهِ جلس وسط الصفار والقشور، وصرخ بأعلى صوته ورقبته ممدودة نحو السَّماء، فظهرَ على جهتي عنقه

كيسان هوائيان يمتلئان ويفرغان بشكل إيقاعي. وهكذا أفرغ كلَّ شحنات غضبه، وأحسَّ بارتياح.. كانت هذه أوّل مرةٍ يتمكّن فيها من القيام بشيءٍ ما تجاه تلك القُوَّةِ التي غيَّرت مصيره.

كيف ذلك؟! لا يعرف !!، لكنَّه واثقٌ بأنَّ ثمةَ علاقة بين تلك العلامات الزَّرقاء وبين ما أصابه..

وَتَّرت الضَّوضاء أعصاب عصفور الكناري.. قفز الطَّائر من على المنضدة وفتح باب القفص.

- هيَّا اخرج، أصبحت حرّاً الآن.

لم يخرج عصفور الكناري، وإنَّما نَظر إلى الطَّائر مذعوراً ثم قفز وهرب إلى أقصى زاوية في القفص، ثم سأله:

- هل فَقَدْتَ صوابك؟

- لا تَخَفْ؛ فهُو ليس هنا.. يمكنك الخروج الآن.

- أنا أُحِبُّ قفصي، ولا أريد الخروج.

- ما الذي ستخسره؟ هيَّا اخرج وانظر إلى مُحيطك، يمكنك العودة إلى قفصك فيما بعد إذا أردت.

عندها سأل عصفور الكناري:

- إلى أين يمكنني الذهاب؟

- يمكنك أن تذهب إلى أي مكان تشاء.. ما زلت تعرف الطَّيران على أيِّ حال، أليس كذلك؟!

- لقد وُلِدْتُ في مثل هذا القفص، ولم أتعلَّم الطيران يوماً،

لذلك فإنَّ جناحيَّ قد تيبَّستا. أنا الآن عجوز مريض، وإذا خرجت من القفص فإنني سأموت لا محالة في غضون ساعاتٍ.

شعر الطَّائر بالحزن وخيبة الأمل.. نظر عصفور الكناري المذعور إليه بعينه اليمين تارةً وبعينه الشمال تارةً أخرى، لكنَّه كان هذه المرة يُبدِّل زاوية النظر في وقتٍ أسرع من المرة السابقة.

- هل تقصد أنَّك حقاً لم تكُنْ يوماً خارج القفص؟

- نعم، كانوا ينقلونني من مكان إلى آخر في قفص كهذا عندما كنت أعمل، لكنَّهم لم يعودوا الآن ينقلونني إلاَّ نادراً بعد أن بلغتُ سنَّ التَّقاعد.

- وما كان عملك؟

- لا شيء! كانوا يأخذونني إلى مناجم الفحم الحجري ليختبروا جودة الهواء.. يُفتَرَضُ بي أن أموتَ إذا كان الهواء مُسَمَّماً!!..

- تقصد أن عملك يقتضي موتك؟! إذاً لا تسألني بعد الآن إن كنتُ قد فقدتُ صوابي!

- لكنَّني لم أتقدَّم لهذه الوظيفة، ولم أَمُت في الوقت المتوقَّع لي.. ماذا يهمُّ الآن وقد أصبحت عليلاً واقترب أجلي على أيِّ حالٍ.

- إذاً لماذا لا تخرج من قفصك ولو لمرَّةٍ واحدةٍ؟ هيَّا اخرج!

تنحَّى الطَّائرُ جانباً فيما بقي عصفور الكناري يُفكِّر لبعض

الوقت.. استجمع شجاعته وخرج من القفص. وما هي إلاَّ قفزات معدودة حتَّى صار في وسط الكوخ فوق المنضدة الكبيرة.

- كلُّ شيءٍ يبدو مختلفاً من هنا، لكنَّ الغريب أنَّني ما زلتُ أرى قضبان القفص أمام عينيَّ! أُدركُ أنَّها غير موجودة، إلاَّ أنَّني أراها على أيِّ حالٍ، يبدو أن صورتها قد حُفِرتْ في عينَيَّ، وأنَّ أوان التغيير قد فات.. ستبقى القضبان بيني وبين العالم إلى آخر لحظةٍ من عمري.

- عندما رأيتك أول مرةٍ ظننتُ أنَّك روحُ ذلك الطيْر العملاق الجامد.

لم يكَدْ الطَّائر ينتهي من جملته حتَّى سمع صوتاً غريباً آتياً من الجو له أزيزٌ.

اقترب الصوت أكثر فأكثر ،كأنَّ ذِكرَ اسم الطير العملاق دعاه للحضور..

هرب الطَّائر من المكان بأقصى سرعته.

•••

يأتي الماء العذب إلى الجزيرة من ثلاثة ينابيع، تلتقي في مكانٍ ما شرقَ القلب الحجري حيث تُكوِّنُ نهراً ضيِّقاً. تحفر هذه المياه مجاريها في الصخور إلى أن تصُبَّ في البحر، مُتتبِّعةً قناةً كوَّنتها الصخور والمنحدرات. في نهاية فصل الصيف القصير، عندما

يشتد برد الليالي، وتفقد الشمس طاقتها خلال النَّهار، يظهر الجليد ساطعاً كالبلَّور حول الأحجار وفي أماكن التقاء جدول الماء باليابسة. جدول الماء هذا هو المكان الذي يذهب إليه الطَّائر إذا عطش، وهناك يروي ظمأه.

سمك السلمون ليس نادراً في المياه المالحة المحيطة بالجزيرة، لكنَّ رؤيته في هذا الجدول أمر غير طبيعي؛ وهذا ما حدث الآن، حيث رقدت سمكة السَّلمون العملاقة في مكان مياهه ضحلة على جنبها تلفظ أنفاسها، وتُحرِّك زعانفها، وهي لا تكاد تقوى على الحركة.

سألها الطَّائر:

- هل تحتاجين إلى مساعدة؟

لم تُجب سمكة السلمون، بل اكتفت بفتح فمها وإغلاقه كأنَّها تحاول ابتلاعَ أكبر قدرٍ ممكن من الهواء في أسرع وقتٍ ممكن.

اعتبر الطَّائر حركة السمكة جواباً بالإيجاب، فهو يعرف أن السَّمك لا يعيش في البرِّ، لذا حاول دفعِ السَّمكة إلى مكان فيه ماءٌ أكثر.. وعندما لم يُجْدِ الدفع نفعاً التفَّ حول السَّمكة وحاول جرَّها من ذيلها، فنجح هذه المرَّة في تحريكها، لكنَّهما سقطا معاً في الجدول. وعلى الرغم من أنَّ هذه أولُ مرَّةٍ يسقط فيها الطَّائر في الماء إلاَّ أنَّه تدبَّر أمره جيِّداً، بل إنَّ التَّجربة أعجبته كثيراً، وسرعان ما دبَّت الحيوية في السَّمكة فقالت:

- أشكرُك.

نفض الطَّائر الماء عن ريشه وسألها:

- إلى أين كنت ذاهبة؟ الماء في هذا الجدول ضحل بالنسبة إلى حجمك.

- أحاول البحث عن المكان الذي ولدتُ فيه.

نظر الطَّائر إلى الأعلى، إلى المكان الذي تنحدر منه المياه متعرِّجةً إلى الأسفل.

- هناك؟! لا أعتقد بأنَّ ذلك هو الاتجاه الصَّحيح، فأنا لم أرَ يوماً أيَّ سمكةٍ في هذه المياه.

- لا شكَّ في أنني ضللت الطريق إذاً.. آهٍ، أنا متعبةٌ جدّاً، فقد بحثتُ في كلِّ مكانٍ، وقد فقدتُ حِسَّ الاتِّجاه.

- أيُّ نوعٍ من السَّمك أنت؟

- سمكة سلمون.

- لقد رأيت أسماك سلمون من قبل، لكنك تبدين عملاقة مقارنة معهن.

- أعرف ذلك، فأصدقائي يُعيِّرونني بحجمي، ويقولون إنَّني وُلِدتُ في مُختَبرٍ ما، وإنَّه لا طائلَ من البحث عن مكان ولادتي. لقد أعطوني جينات النُّمو، فصار حجمي أكبر من الحجم العادي بسبع وثلاثين مرة. المشكلة أنَّهم لم يحسبوا حساب روحي التي لم تنمُ مع نُمُوِّ جسدي، والتي أصبحت داخل جسد يكبرها بكثير.. لقد أصبحتُ ضائعةً داخل نفسي.

أحسَّ الطَّائر بتعاطفٍ شديدٍ مع السَّمكة العملاقة.. ثمَّةَ شيءٌ مشتركٌ بينهما لا يَعرف ما هو، لكنَّه في تلك اللحظة أحسَّ بشعور سمكة السَّلمون نفسه.. ربما تكون روحه قد نمت أكثر من اللازم فضاق بها جسده.

•••

الريح صديقة الطُّيور.. إذا كان وزن الطَّائر أثقل من العادة حين يُكثِرُ الأكلَ أو حين يحمل صيداً - مثلاً - فإنَّ عليه أن يركض ويرتفع في الجو في مواجهة الريح.. هذا ما رآه الطَّائر من أمِّه، وهو ما كانت تَـحُثُّهُ على القيام به.

وقد أدرك الآن أنَّه ليس الوحيد الذي أنكر الحقيقة؛ فالأمل في أن يطير يوماً ما لم يكن أمله وحده، وإنَّما كان أمل أمِّه أيضاً.

كانت الريح شديدةً بما يكفي، شديدة حتى بمقياس الطُّيور ذات الأجنحة القويَّة. بدت الأمواج المرتطمة بحافة المنحدر من المكان المرتفع الذي وقف فيه كأنَّها ألسنة وحش تلْعَقُ الصُّخور.. هاهو الآن يقف في أعلى مكانٍ أمكنه تسلُّقه.. إنَّه يقف الآن على أعلى صخرةٍ ممكنة.

هل الشَّجاعة هي الشيءُ الذي كانت قد فقدها أسلافه؟ تُرى هل يتأقلم جوهر الأشياء مع روحها؟.. متى وكيف مدَّت أوَّل شجرةٍ جذورها وقرَّرت ربط مصيرها بقطعة من الأرض؟ هل تخلَّت أوَّلاً عن حُرِّيَّتها في الحركة والكفاح وحرية اختيار مكان الوقوف،

وبعد ذلك ظهرت لها جذور تناسب نمط حياتها الجديد؟ أم أنَّ خوفها من الخسارة جعلها تتشبَّثُ بأمها الأرض؟

سواء أكانت حالهم نتيجة اختيار أم إجبار، انظر إلى ما آلت إليه الآن! تنتظر قطعها أو حرقها من دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها. آهٍ لو تَوفَّرت قُوَّةٌ ما، كقوَّة الاختيار.. إنه يملك على الأقل الشَّجاعة الكافية لاتخاذ القرار.. لن يخسر شيئاً؛ فالماضي يَعُجُّ بالخذلان وخيبة الأمل، عكس المستقبل... المستقبل في يده هو، ليس ثـمَّة ضرورة إلاَّ ضرورة توَفُّر الإرادة.

قد يكون القفز من أعلى الصَّخرة خطأً جسيماً، لكنَّه قد يكسر اللَّعنة. وَحدَهُ الأمل في هذه الآونة هو الذي يربطه بالحياة.. اقترب أكثر فأكثر بالحافة إلى أن وصل إلى آخر قطعة من الأرض، وأصبح أقرب إلى السماء.. رفع رجله ونشر جناحَيْهِ القصيرين.. كادت الريح الشَّديدة أن تدفعه إلى الوراء.

وفجأةً أثار ضجيج هبوط طائرين انتباه الطَّائر الواقف على الصخرة.. بدأ قلبه يدق بسرعة أكبر.. اقترب الطَّائران، وسرعان ما تعرَّف عليهما. أحدهما هو الغراب الذي التقى به من قبل، وقد جاء الآن ومعه شريكته.

قال الغراب:

- كنت أعرف أنني سأجدك هنا.

- جئنا لنتفرَّج عليك وأنت تقفز.

- عبثاً تعتقد بأنَّك ستحظى بطعامٍ، فأنا أنوي الطَّيران بعيداً بعد أن أقفز مباشرة.

- ستطير إذاً! لكن إذا لم تتمكَّن من ذلك فإننا لن نترك جُثّتك تتعفَّن طويلاً.

قالت شريكة الغراب:

- أقترح أن تعود بضع خطواتٍ إلى الوراء لكي تحصل على السُّرعة المناسبة للإقلاع..

بعد فترةٍ من التفكير عاد الطَّائر بضع خطواتٍ إلى الوراء، ثم استدار وواجه خطر السُّقوط من علُوٍّ شاهق. وقف الغرابان ينتظران في صمتٍ.

همس له الصَّوت الذي في داخله:

- «اقفز!!.. لو قفزت فليس السُّقوط ما سيقتلك، وإنَّما وزنك، وثقلك، وثِقلُ فِكرِك. حدِّد خيارك، وسيطر على فكرك.. لقد قيَّدَكَ بالأرض خوفك، والخوف وحده هو ما ربط شعبك بالأرض لملايين السِّنين.. ليت روحك تتشجَّع...»

- هيَّا اتَّخذ قراراً!

كان ذلك الصَّوت الخشن يشَوِّشُ تفكيره.

ردَّ الطَّائر:

- القرار ليس سهلاً.. ألا تُريدان تشجيعي؟

أجاب الغراب:

- نحنُ نُؤمن بالهُمود. عليك اتِّخاذ قرارك بنفسك، فنحن ننتظر هنا فقط في حالة ما إذا قرَّرت القفز.

- ما الذي يحدُث هنا؟

ملأ ذلك الصَّوت القويُّ الرَّنَّان الأرجاءَ، فطار الغُرابان من فورهما. أفقدت هزَّةُ الأرض الطَّائر توازنه، فسقط وبقي جالساً ينظر إلى ما حوله من دون أن يَجِدَ مصدر الصَّوت. فسأل:

- من أنت؟

- أنا الصَّخرة، الجزيرة، الأرض التي وُلِدْتَ عليها.. أنا أرضُ أسلافك.. أنا الأرض التي لم تعرف سواها.. أنا **غوندوانا**.

قام الطَّائر واتَّجه نحو قمَّة الجبلِ، فيما كان الصَّوتُ يحيط به من كل اتِّجاه، حتَّى عندما حاول تغيير اتجاهه، لكنه في الوقت نفسه لم يُحسَّ بأنه يقترب من مصدر الصَّوت.

سألت الصَّخرة مرةً أخرى:

- ما الذي كنت تنوي القيام به؟

- عليَّ أن أختار، فَرُبَّما أكون على بُعدِ قفزَةٍ واحدةٍ من هويتي الحقيقية.

- أنت لا تعرف هويّتك.. لا ينبغي القفز من مثل هذا العُلُوِّ الشاهق بسبب أملٍ أو خيالٍ؛ لأنَّ كلَّ ارتطامٍ من شأنه أن يُهَشِّم عضواً من أعضاء جسمك، فأنت لست أقوى من الصَّخر.

- ربَّما أرتكبُ خطأً إذا قفزتُ، أُدرِك ذلك، لكنَّهُ... لكنَّهُ

سيكون خطئي أنا، وسوف يعرفني الآخرون به، وسيصبح جزءاً مِنِّي إلى الأبد.

- لو لم يكن وجهي من صخرٍ لضحكتُ الآن وقهقهتُ.. أنت الذي ستُصبح جزءاً من خطئك! قد يُعرف النَّاس بأخطائهم، لكن عليك أن تُكرِّر نفس الخطأ عدة مرات قبل أن يُقرن خطؤُك بك.

ردَّ الطَّائر:

- أنا أملك على الأقل الجرأة لوضع حدٍّ لحياةٍ لا أشعر بأنَّها ملكي.

- مِلْكُ مَنْ هي إذن؟

- لم أولد ليكون هذا مصيري. إن روحي عملاقة، وكان في إمكاني التحليق في الأعالي فوق السحاب، والوصول إلى حدود الشمس. أمَّا الآن فأمشي متهادياً ورائحة السَّمك تنبعث مني، أجُرُّ جسدي ذا الشُّحوم الكثيرة التي لا تُجدي نفعاً غير مواجهة البرد، لذلك فإنني لا أستطيع الطيران والهروب بعيداً.. هذا ليس أنا أبداً. لقد قرَّرَ أسلاف أسلافي في يومٍ من أيَّام خمولهم أن يتَخلَّوا عن الطيران، وأن يُصبحوا مثل الأسماك، وها أنا ذا أدفع ثمن قرارهم ذاك.

- أتذكَّر أسلافك؛ فقد كنتُ هنا منذ زمنٍ بعيدٍ جدّاً، قبل كلِّ مخلوقٍ آخر. لَزِمتُ هذا المكان، وتقلَّبتُ لملايين السنين مرَّاتٍ ومرَّاتٍ في مواجهة الشمس والقمر.. لذلك فإنَّني أعرف معنى المحدودية أكثر بكثير منك أنت.

- هل أنت الأكبرُ سنّاً هنا؟

- كانت السماء والبحر موجودين قبلي أنا.. كنتُ قارَّةً جنوبية ذات مساحة شاسعة، لكنَّ الزمن مزَّقني إلى قطعٍ، ونقل أجزائي على بُعد آلاف الكيلومترات. افترقت أخواتي عنِّي، وحصلت كلُّ واحدةٍ منهنَّ على اسم خاصٍّ بها، وأُخرِجتْ أحشاؤهنَّ، ونُقِشت على وجوههنَّ حدود وطرقات. أمَّا أنا... فقد تُركتُ هاهنا وحيدةً منسيَّةً.

- لم أكن أعرف أنَّ ثـمَّة من يشعُرُ بالوحدة والمحدودية أكثر منِّي.

- ليست ثـمَّة وحدةٌ أكثرُ من وحدتي، ولا أرقٌ مثل أرقي الذي دام ملايين السنين. امتلأت عيناي بالتراب، وقلبي مزيج من الحجارة والجليد، لكنَّني مع ذلك أحترمُ الحياة وأُقدِّرها، وأعتزُّ وأهتمُّ بها إلى درجة أنَّني أعتبر ولادة كلِّ بعوضةٍ وتفقيس كل فَرْخ من بيضته على أرضي لحظةَ فرحٍ وبهجةٍ. وحتَّى سنوات اليأس والوحدة التي عشتها فيها أحداثٌ تجعلها ذات قيمةٍ خاصةٍ.. هذه التجارب تجاربي ولا أودُّ تبديلها بتجارب أي شخصٍ آخر، أنا واثقة بأنَّه سيأتي اليوم الذي تشعر فيه بشعوري هذا، هل لديك ما يكفي من الشجاعة لانتظار ذلك اليوم؟

- لم أكن أريد الموت؛ كلُّ ما أريده هو العثور على ما فقدته. ربما أخبرتني أنت...

لم يُتمَّ الطَّائر جملته.. الآن وقد وجد أخيراً من يُمكنه الإجابة

عن سؤاله لم يعد واثقاً بأنَّه يريد معرفة الجواب. طرح الأسئلة أمرٌ بسيط، لكنَّه قد يكون خطيراً أحياناً؛ لأنَّ المرء قد يسمع الجواب الصحيح الذي لم يكن يتوقَّع سماعه. وماذا لو لم يكن أسلافه يتمتَّعون بأي قدرٍ من الشجاعة؟ ماذا لو أنَّ الأمر لا يتعلَّقُ بسحرٍ، ولا بكلمة مقدَّسة تُعيد إليه ما ضاع منه قبل أن يكون له وجود؟

تساقطت قطرات من المطر على منقاره، فقطعت حبل أفكاره.. وسرعان ما تحوَّلت قطرات المطر إلى زخَّاتِ مطرٍ غزيرةٍ فقالت الصَّخرة:

- تعال إلى الدَّاخل..

نظر الطَّائر إلى محيطه من دون أن يتحرَّك.

- التف حول الشُّجيرات، ثم امشِ داخل الشَّق الذي على وجهي، عندها ستجد طريقك إلى الدَّاخل.

وجد الطَّائر طريقه من خلال فتحة ضيقة في جدار الصَّخرة، فبدت أمامه مغارة فسيحة، ورأى في الدَّاخلِ عموداً ضخماً يدْعَمُ السَّقف الصَّخري. لم يكن في المكان مدخلٌ غير ذاك الذي دخل منه. قوبِلَ وصوله إلى المغارة باحتفال من الخفافيش التي طارت طيراناً فوضويّاً في كلِّ اتجاهٍ قبل أن تحطَّ بعد وقتٍ قصير. كانت قطرات الماء تتساقط باستمرار من النَّوازلِ المتدليَّة من سقف المغارة، وتتجمَّع في حوض ماء رقراقٍ، ثمَّ تنساب منه إلى جدول يتدَفَّق بلطف.. وجد الطَّائر نفسه مُحاطاً بعالمٍ فريدٍ من نوعه.

بدا الطَّائر ميتاً عندما وجدته؛ كان مظهره يوحي بأنَّه ضائعٌ أو مُتخَلّىً عنه، وبأنَّه مات من الجوع. جسده كان هزيلاً وضعيفاً ومُتَّسخاً وشاحباً وبارداً، وكان ريشه متضرِّراً. كان فاقداً للوعي، وكان وزنه نصف ما ينبغي أن يكون عليه تقريباً. أحضرتُه إلى الداخل حتَّى أشرِّحَه، غطَّيتُ المنضدة بقميص قديم، وفرَشْتُ فوق القميص كيساً بلاستيكياً، ثُمَّ تركته هناك وذهبتُ لإحضَار لوازم التَّشريح من الطَّائرة. وعندما عدتُ، وجدته جالساً على المنضدة وعيناه جاحظتان. وبعد لحظاتٍ من الذهول الذي أصابنا كلَيْنا، انفجرتُ ضاحكاً. لقد كان الموقف مضحكاً جداً إلى درجة أنَّني نسيتُ حالته الحرجة جدّاً.

يبدو أنَّه ظنَّ نفسه ميتاً أيضاً، ولذلك كان ينظر إلى محيطه بعينين ملؤهما التَّعجُّب والاستغراب!

قال الطَّائر بصوتٍ ضعيفٍ:

- لقد زُرتُ هذا المكان من قبل، أنت هو الشَّخصُ الذي يقلب حياة الآخرين رأساً على عقب.

انتفض الطَّائرُ محاولاً التَّخلُّص من الكيس البلاستيكي ثم صرخ:

- دعني أذهب!

حاولتُ أن أُخلِّصه من الكيس، لكنَّه ظنَّ أنّني أُهاجمه، فعالج يدي بنقرَةٍ فاجأتني قُوَّتُها مقارنة مع حالته الصِّحية السَّيِّئة، وَما هِيَ إلاّ لحظات حَتّى دخل في غيبوبة. ما زالت ندبة نقرته موشومة على يدي اليمنى ما بين السَّبَّابة والإبهام. في كلِّ مرَّةٍ أمد فيها يدي لأتناول قلماً أو فنجان شايٍ أستحضرُ تلك اللحظة وتلك الأيام التي غيَّرت مجرى حياتي.

أدرَكتُ لاحقاً أنهُ هو الذي تسبَّبَ في تلك الفوضى التي وجدتُ الكوخ عليها من قبل.. لقد ذكَّرَتْهُ تلك الرُّموز التي كَتَبْتُها على البيض بالرُّموز التي كانت على قشرةِ بيضته، ولأنَّه رأى صورتها معكوسةً على المرآة فإنَّها بَدَتْ شبيهةً بما رآه من داخل بيضته. لم يخطُرْ ببالي من قبل أن من الممكن - ولو لا شعورياً - استحضار ذكرياتٍ نُقِشَت في الذاكرة قبل الخروج إلى العالم.

- أنا آسفٌ جدّاً؛ لا أعرف كيف حدث ذلك هذه المرَّة! فقد كرَّرتُ هذه التَّجربة مئات المرات من قبل.. من صميم عملي فَحْصُ البيضِ وأخذُ قياساته ثم إعادتُه إلى مكانه بعد ذلك.

أكتُبُ على كلِّ بيضةٍ ملاحظاتي بشأن المكان والزَّمان الذي عثرتُ عليها فيه، كما أدَوِّن عليها فصيلة الطير الذي تنتمي إليه كلُّ واحدةٍ منها. ليس للأمر أيُّ علاقةٍ بالسيطرة على مصير تلك الكائنات، لكن يبدو أنني - لسببٍ من الأسباب - خلطتُ بين الرُّموز، أو ارتكبتُ خطأً من هذا القَبيل. أُؤَكِّدُ لكَ أنّني لم أفعل

ذلك عمداً، بل كان خطأً صِرفاً.

- هل تقصدُ أن حياتي كلَّها خطأٌ صِرفٌ؟

لم أجِدْ جواباً على سؤاله.. لم أكن أدرك أن الخلط بين أعشاش البطريق وأعشاش القطرس قد تكون له عاقبةٌ كهذه. لقد تسبَّبتُ في ولادةِ يتيم، وأيّ يتيم؛ فهو ليس يتيماً يفتقدُ الوالدين، بل يتيماً فَقَدَ هُوِيَّتَهُ. ليَتني فعلتُ العكس! لو أنَّني وضعتُ بيضة القطرس في عش البطريق لتمكَّنَ من الطَّيران يوماً ما، ولتحوَّل إلى أسطورةٍ بين أبناء عشيرته.

ماذا في وسعي أن أفعل؟ فهو من جهةٍ يرفُضُ الانضمام إلى آخر طيور البطريق التي تغادر الجزيرة، ومن جهةٍ أخرى ليس في حالةٍ صحيَّةٍ تسمح لي بأن أتركه وحده، لذا أقنعتُهُ بالبقاء هنا إلى أن يستعيد عافيته.

كان يتعامل معي بريبة وحذر، لذلك لم يكن إطعامه ومداواته أمراً هيِّناً. بعد مرور بضعة أيام تمكَّن من الحركةِ مُجدَّداً، وأخذ يتأمَّل كلَّ ما في الكوخ عن كَثبٍ، وطرح عدَّةَ أسئلةٍ كان من الصَّعبِ الإجابة عن معظمها. اعتقدَ أن عصفور الكناري قد طار بعيداً، وأنَّهُ هو من حرَّرهُ، وبدا سعيداً جدّاً باعتقاده هذا. ما حدث في الواقع أنَّ عصفور الكناري المريض خرج من الكوخ وتجمَّد من شدَّةِ البرد، ومات بعد ساعاتٍ معدودة من خروجه.. لقد وجدتُهُ جثَّةً هامدةً قُرْبَ الكوخِ بعد أيَّامٍ من موته!.

استرْعَت الأشياء المتحرِّكةُ بشكلٍ خاصٍّ اهتمام ضيفي؛

كالسَّاعة الرَّملية على سبيل المثال، فقلبتُها له رأساً على عقب عدَّةَ مرَّاتٍ، حيث بقي واقفاً أمامها يتأمَّل انسياب الرِّمال. وعند رؤيته تلك الساعة سأل:

- لماذا تسجن هذه الرِّمال؟

- أستدِلُّ بها على مرور الوقت.

- وهل يتوقَّف الوقت عندما لا تنساب الرِّمال؟! وهل تستطيع العودة بالوقتِ إلى الوراء عندما تجعل الرِّمل ينساب في الاتجاه المعاكس؟

- ليتني أستطيع ذلك! لكن هيهات، فالوقت لا يتوقَّف ولا يعود إلى الوراء.

- إذاً ما الفائدة من هذا الشَّيءِ؟

- أراقب بواسطتها مرور الوقت.

- لكن لا يمكن للوقت أن يمُرَّ داخل ذلك الشَّيء؛ فليس في داخله إلاَّ رمالٌ تنساب. لقد جعلتَ حبَّاتِ الرَّمل المسكينة تدخل في سباقٍ يائسٍ مع الوقت على الرغم من أنَّها لن تستطيع اللحاق به أبداً؛ لأنَّها عندما تنساب في مسارها يكون الوقتُ قد فاتَ.. فاتَ إلى الأبد!

- لماذا تُمعنُ النَّظر فيها إذاً؟ لقد طلبتَ منِّي أن أقلبها رأساً على عقبٍ مئةَ مرَّةٍ على الأقلِّ.

- تُؤْسفُني حالة حبَّاتِ الرَّمل؛ فهي تُذكِّرني بنفسي. تنساب في هذا الاتِّجاه أو ذاك، إلى الأعلى وإلى الأسفل، كأنَّها هي الأخرى

تبحث عن شيء ما. إنَّها تُريدُ العثور على طريقةٍ لتجد المستقبل أو الماضي، أو رُبَّما تبحثُ عن وسيلةٍ للخروج.

•••

ما زالت طبقة الشَّحم في جسد الطَّائر غير كافية لحمايته من البرد. حاولتُ إقناعَهُ بأن الأشجارَ التي أحرقتُها كانت قد ماتتْ سابقاً، ومن المؤكَّدِ أنَّها لا تمانع في أن تتحوَّل أجسادها إلى دفْءٍ. يبدو أنَّه يخاف من النَّار، لكنَّهُ مع ذلك بدا مُعجَباً بها كثيراً.

وضعتُ له وسادةً قرمزية اللون في وسط الغرفة قرب المدفأةِ، لكنَّهُ هجرها من فوره واستقَرَّ في الزَّاوية بحيثُ يمكنه أن يستند بظهره إلى الحائط ويراقب الغرفة كلها في الوقت نفسه. لم تمض إلاَّ بضعة أيَّام حتَّى أدركتُ أن الأمر لا يتعلَّقُ بسوء اختياري للمكان فقط، لكن بسوء اختياري للون الوسادة، فاللون القرمزي لم يُعجبه، وما إن بدَّلتُ تلك الوسادةَ بأخرى صفراء حتَّى فضَّلها على الأرضية الصلبة.

سألني في أحد الأيَّام وهو يجلس على وسادته:

- ماذا أكون أنا؟

- ماذا؟

- أنت تعرف أسماء جميع الأشياء، أليس كذلك؟ أخبرتني النَّملةُ الجدَّة أنَّكَ تُعطي الأسماء لسائر الأشياء.

- قد يكون ذلك صحيحاً.

- هل يُساعدك ذلك في السَّيطرة عليها فيما بعد؟

- لا أعرف إن كان إطلاق الأسماء يُساعد على ذلك، لكنَّه يُسهِّل الحديث عنها لاحقاً بعد تسميتها؛ ومن يجد شيئاً لم يُسَمِّهِ أحدٌ من قبل فإنه ينال شرف اكتشافه.

- وكيف تختار الأسماء؟

- ليس ثمَّةَ قاعدةٌ معيَّنة؛ فأحياناً نختار الأسماء بحسب مظهر المخلوق؛ وأحياناً نُسَمِّي المخلوقات والأماكن بأسماء أشخاصٍ. وهناك كثير من الأشياء التي لم يَعُد أحدٌ يتذكَّر سبب تسميتها.

- وكيف سمَّيتني إذاً؟

أجبتُهُ بدِقَّةِ عالِم الحيوان:

- فصيلة الطيور، عائلة الجناح المحذب، رتبة البطريقيات، نوع البطريق الآديلي.

- هل كلُّ هذا اسمي؟! ما أنا إلا مخلوق صغير؟ أيُّ نوعٍ من الأسماء تُطلِق إذاً على الجبال أو الأسماك العملاقة؟

- هذا هو اسمك العلمي الذي يحتوي على فصيلتك وعائلتك ورتبتك وما إلى ذلك.. يمكننا أن نقول بطريقةٍ أبسط إنَّك بطريق.

- وما معنى اسمي؟

لم أُرِدْ أن أُخبره بأن أحد الـمُستكشفين الفرنسيين اعتقد بأنَّ مظهر طيور البطريق مُضحِكٌ مثل منظر زوجته، وأنَّهُ في لحظةِ جنون سمَّاها باسم زوجته «آديلي»، ولم أُرِدْ أن أُخبره بأنَّ كلمة

بطريق تعني «أعرج». لا يُمكننا الدِّفاع عن الـمُصطلحات التي نختارها، فما أكثر الأماكن التي سمَّيناها بأسماء أشخاص لا يستحِقُّون حتَّى أسماءهم، وما أكثر الأسماء التي أطلقناها عن طريق الخطأ وتمسَّكنا بها بكلِّ سطحية مع ذلك. هل كان في إمكاني إخباره بأنَّ أحدَهم كان ينوي السَّفرَ إلى الهند لكنَّهُ وصل عن طريق الخطأ إلى مكان آخر، ومنذ ذلك الوقت نُسَمّي سُكَّان تلك الأرض «الهنود»؟

- هل أنا طائرٌ أم لا؟!

كسَرَ سُؤالُه جدار الصَّمت.

- أجل.

- لماذا لا أستطيع الطَّيران إذاً؟ ما هو العيبُ الذي فِـيَّ؟

- ليس فيك أيُّ عيبٍ، لقد حدث هذا التَّغيير قبل ولادتك بزمنٍ.. عظامك خفيفة وجوفاء مثل باقي الطُّيور، الفرقُ أنَّ أسلافك تَوقَّفوا عن الطَّيران منذ زمنٍ بعيدٍ وقرَّروا البقاء على الأرض.

- لماذا؟

قام عن الوسادة ومشى نحوي بحماسة:

- متى؟

- لا أعرف بالتحديد، رُبَّما كان ذلك أنْسَب لنمط عيشهم، ورُبَّما كانوا مُجبرين على التَّوقُّف عن الطَّيران. لقد عثر العلماء على عظام تعود إلى أسلافك عمرها ملايين السِّنين، لكنَّها لا تختلف في شيءٍ عن عظامكم الحالية. من الـمُحتملِ أيضاً أنَّ

جميع الطُّيورِ كانت مثلك يوماً ما، وأنَّ أجنحة فصيلتك لم تتطوَّر كأجنحة باقي الطُّيور.

أدار ظهره لي، ومشى ببطء مُبْتَعِداً..

- كُنتُ أعتقِدُ لفترةٍ من الوقت بأنَّ فيّ عيباً يمنعني من الطَّيران، وبعد ذلك أدرَكتُ أنَّ تغييراً ما أصابني قبل ولادتي بزمنٍ طويل.

استدار نحوي مرَّةً أخرى وسألني وهو متوتر:

- هل ثمَّةَ ما يُمكنني القيام به؟ كيف يمكنني تغيير مصيري؟ كيف تمكَّنت الطيور الأخرى من تطوير أجنحتها؟ في أيِّ أمرٍ فشلنا نحن؟

حوَّلتُ نظري عنه وأطرَقْتُ أُفكِّر.. لم أُرِدْ أن أُخَيِّب أمله مُجدَّداً.

- لقد رأيتُ فصيلتك تسبح.. عجيبٌ! كيفَ يسبحُ أبناء عشيرتك بسرعةٍ وإتقانٍ؟! سباحتُهم تشبه الطَّيران، الفرق الوحيد هو أنَّهم انتقلوا من الفضاء إلى الماء.. هل سبق لك أن حاولتَ السِّباحة؟

لكنَّ جوابي لم يشفِ غليله. عزمتُ الانتظار حتَّى يستردَّ عافيته ثُـمَّ آخذه ليسبح، فربَّما يكون ذلك هو الحل. شعرتُ على أيِّ حالٍ أنَّني مسؤول عن هذا الوضع، أو بالأحرى عنهُ.

لقد تمكَّنتُ من الاقتراب منه بسهولةٍ بالنَّظر إلى مدى تأثير خطئي على حياته.. كان أصعب شيءٍ واجهني هو كيف أشرح له ما أفعله في الجزيرة، وسبب عملي ذاك. كان يعتقد بأنَّ القياسات

التي آخذها والأسماء التي أطلقها على الأشياء لها علاقة ما بالسَّيطرة على مصير الحيوانات، وكان من الصَّعب تغيير فكرته هذه أو الوصول إلى اتفاقٍ بهذا الشأن. ومع ذلك فإنني أعتقد بأنَّه فهم أنَّني أنا في حدٍّ ذاتي لن أتسبَّب له في أيِّ ضررٍ.

من الأرجح أن تكون الوحدة أهمَّ عاملٍ مشتركٍ بيننا، وأسعدني أنَّه كان يبحث عن عوامل مشتركة أخرى.

سألني في أحد الأيام.

- هل لك والدان؟

- أبي تُوفِّي، وأمي تعيش في مكانٍ بعيدٍ جداً عن هنا.

- هل تركتك هنا؟

- لا، بل جئتُ إلى هنا بنفسي.

فقال لي وفي صوته نبرةٌ اختلطت فيها السُّخرية بالمرارة:

- لماذا؟ لكي تكتب علاماتٍ على بيض الطُّيور؟!

- لم أجد عملاً في بلدي. كنتُ بُستانيّاً من قبل، وكان ذلك أوَّل عملٍ لي، وبعد ذلك بدأتُ أكتُبُ قصصاً للأطفال لفترةٍ من الزَّمن، لكنَّني اضطررت إلى ترك العمل مرَّةً أخرى، وهذا أفضل عملٍ يُمكنني تخيُّله بعد الكتابة.

- لا بُدَّ من أنَّك تشعر بالوحدة هنا، فليس ثمَّةَ أحدٌ من بني جنسك في أيٍّ من الأماكن المجاورة.

- أشعر أحياناً بالوحدة، لكنني أُحبُّ الحياةَ هنا عامَّةً.

- حقّاً؟ في هذا المكان البارد والـمُقفر! سمِعتُ أن الشِّتاء هنا

أكثرُ برودَةً، ناهيك عن كونه فصلاً مظلماً.

لم أُرِدْ أن أخبره أنَّني سأغادر المكان قريباً.

- أشعرُ بوحدةٍ أكبر وأنا وسط جمعٍ كبير من النَّاس، وأنا واثق بأنَّ الآخرين لا يحبُّون رِفقتي.

فسألني وهو يُحرِّك جناحيه في الهواء:

- هل يُحسِنُ الآخرون شيئاً لا تُحسنه أنت؟ هل يعرفون الطَّيران؟

- لا، لا شيء من هذا القبيل. لم يُحبَّ الرَّاشدون تلك القصص التي كنتُ أكتبها للأطفال.

كان منبطحاً، فاستوى جالساً على وسادته.. بدا مهتمّاً لقصَّتي، لذلك تابعتُ السَّرد:

- تُحكى للأطفال على مرِّ السِّنين قصصٌ تُعطيهم صورةً خاطئةً عن العالم الذي هم بصدد دخوله، وتُصوَّرُ لهم الحياةُ فيها سهلةً وبسيطةً. وفي لحظات اليأس يتوَلَّى السِّحرُ تغيير الأمور، وتُحقِّقُ الحوريَّاتُ الأماني، ويتحقَّقُ العدلُ دائماً، وتظهر الحقيقة في النِّهاية دائماً. الخير جميلٌ على الدَّوام، والشَّرُّ قبيحٌ على الدَّوام. الغنى قيمةٌ والفقرُ خِزْيٌ. لذلك يتوقَّع الأطفال أن تكون الحياةُ شبيهةً بعالم الحكايات، فيخيبُ أملهم، ويتأذَّونَ؛ لأنَّ الواقع لا يوافق توقعاتهم.

عندها سأل ضيفي:

- وماذا عن الأمل؟

- الأمل؟! لا أدري. أردتُ فقط أن أقول الحقيقة للأطفال، وأن أرسم لهم صورة واقعية عن العالم الذي نعيش فيه.

- هل كتبتَ العديد من القصص؟

- القليل فقط.. عادةً ما كان النَّاس يُغيِّرون قصصي بالشكل الذي يريدونه، ولا يقبلون إلاَّ النِّهايات السَّعيدة، ولذلك توقَّفتُ عن الكتابة.

- لماذا اخترت لقصصك نهاياتٍ حزينة؟

- ليس للقصص نهايات ولا بدايات؛ نحن نضعُ جزءاً صغيراً من الحياةِ أو من الخيال داخل إطارٍ؛ ويُمكننا أن نضع نقطة النِّهاية حيثُ نشاء. يضع النَّاس أحياناً نقطة النِّهاية بعد حدثٍ سعيدٍ؛ فتكون النِّهاية سعيدة، ويضعونها أحياناً بعد حدثٍ حزينٍ؛ فتكون نهاية القصة مأساوية.

- إذا جاء يومٌ وكتبتَ قصَّةً عنِّي فعِدني ألاَّ تضع نقطة النِّهاية في أيِّ مكانٍ.

- ألاَّ أضعها في أيِّ مكانٍ؟! النَّاسُ لا يُحبُّون القصص التي ليس لها نهاية.

- فَوِّض أمرَ نقطة النِّهاية لهم إذاً، ودعهم يضعوها حيثما شاؤوا.

- إنَّها فكرةٌ حسنة.. أعِدُك أن أفعل ذلك.

بدأ البطريق الصَّغير يتثاءبُ، ثمَّ وضع رأسه على الوسادة

واستلقى، ثم قال:

- هلاَّ حكيت لي قصةً؟! لم أستمع لقصَّةِ ما قبل النَّوم منذ وقتٍ طويلٍ.

- هل تُحبُّ قصص ما قبل النَّوم.

- أحبُّها كثيراً. كنَّا أحياناً نقضي يوماً كاملاً في اللَّعب والمرح، فينال منَّا التَّعب، لكنَّنا لا نشعر بالرَّغبة في النومِ مع ذلك، فتحكي أمي...

اختفت حماسته الطُّفولية الخالصة، وغابت جملته في عُمقِ الصَّمتِ عندَ آخر كلمة كأنَّ سِحرَ تلك الكلمة جمَّد حبْلَ أفكاره وجعلها لا تعكسُ إلاَّ صورةً واحدةً: إنها الصورةُ الوحيدةُ، والذِّكرى الوحيدة لأوَّل كائنٍ وقع بَصرُه عليه في حياته؛ صورة الأمِّ التي لم يعرف غيرها. هل كانت كلمةُ «أمّي» بمثابة ملحٍ نُثِرَ على جراحه؟

ها هو ذلك الكائن الصَّغير البائس أمامي مُتعباً، واهياً، وهزيلاً جدّاً. كان نحيفاً جداً إلى درجة أن في إمكاني أن أعدَّ ضلوعه بكلِّ سهولة. لقد أنهكه سوء التغذية، وكسره الحزن. ومن بين سائر المخلوقاتِ التي رأيتُها في حياتي أجِدُه الأكثر يُتماً على الإطلاق، فحتَّى أمُّنا الطَّبيعة قست عليه.

أدركتُ فجأةً أنَّ صمتَهُ لم يكن بسبب حالته الصِّحِّية الضعيفة، بل لأنَّ أفكاراً كانت تروجُ في أعماقه. شيءٌ ما جعله يعود بذهنه إلى الماضي، وإلى الأرض المجهولة.. ما الذي فقده؟ أهي أمُّهُ، أم عشيرتُهُ، أم هوِيَّته؟!

ثَبَّتَ نظرَهُ في الأرض، ولكنَّ فكره ذهب بعيداً جدّاً، إلى مكانٍ ما لم أستطع معرفتَهُ مهما ثبَّتُّ نظري في الأرض. انفرج جفناه فترقرقت دمعةٌ في عينه وسالت على خده الهزيل.

- فَهِمتُ ما تقصده.

حاولت أن أُتابع الحديث من حيثُ انتهى هو.

- قصَّةُ ما قبلِ النَّوم تساعدك على الخلود إلى النوم، فتنامُ وأنت على يقينٍ بأنَّ أحدهم يحرسك ويعتني بك.

ردَّ البطريق الصَّغيرُ بصوتِهِ الضَّعيفِ وعيناه لا تزالان مثبتتين في الأرض:

- لم أكن أريد النَّومَ من شِدَّةِ الخوف، كنتُ أخافُ ألاَّ أجدَ أُمِّي حين أستيقِظَ.

- أما زلتَ تُريدني أن أحكي لك قصَّةً.

أومأ برأسه، ثم انقلب على جنبه الآخر بكُلِّ هدوءٍ وأغمضَ عينيه.

- حسناً، لنرَ.. سأحكي لك قصَّةً حكتها لي أُمِّي.

انتظرتُ لحظةً لأتأكَّد من أنَّهُ ما زال مُستيقظاً.. فتح عينيه قليلاً، ثم عاد وأغلقهما مرَّةً أخرى عندما تابعتُ السَّردَ:

- سأَقُصُّ على مسامعك قصَّةً فارسيَّةً قديمةً اخترتُها لك؛ لأنَّها تحكـي عـن الطُّيور: يُحكى أنَّه كانت في أحد الوديان أرض خضراء خصبة، تكثر فيها الأنهار والبساتين، وكان في تلك الأرض نبعُ ماءٍ غزيرٌ وغذاءٌ وفيرٌ، وكانت الحياةُ فيها سهلةً ورغدةً.

لم يكن في الأرض سُكَّانٌ غير طيورٍ صغيرةٍ مُلوَّنةٍ مُختلفة

الأنواع من ببغاواتٍ وحماماتٍ، كانت تتخذُ من أعالي الأشجار أعشاشاً. عاشت الطُّيور في تلك الأرض في وئام أجيالاً بعد أجيالٍ، وسنواتٍ عقبتها سنوات، تتمتَّعُ بالغذاء الوفيرِ، والأعشاش الجميلة، والأرض البديعة التي يُحلِّقون في سمائها. لكنَّها كانت تفتقد شيئاً ما. وبين فينة وأخرى كان أحد الطُّيور يتوقَّف عن الأكل أو يصحو من النَّوم ويفكِّر: لا بُدَّ من أنَّ ثمَّةَ ما هو أكثر من هذا.. كانت الطُّيور على يقينٍ بأنَّ شيئاً ما ينقصها، لكنَّها لم تكن تعرف ما هو.

وفي يومٍ من الأيام اجتمعت سائر طيور الوادي لتُناقش المشكلة، فقالت بعض صغار الطيور:

- لا بُدَّ من أنَّ في الحياةِ شيئاً آخر، شيئاً أكثر. لكن أين يمكننا البحث عنه؟! وكيف؟ هل ثمَّةَ أحدٌ يعرف ما الذي نبحث عنه؟

كانت مُعظم الطُّيور مُتَّفقَةً بشأن المشكلة، لكن لم يكن لدى أيٍّ منها حلٌّ لها. لكنَّ بعض الطيور الأكبر سنّاً كانت تخالفهم الرَّأي، ولسان حالها يقول:

- لدينا كلُّ شيءٍ، وحياتنا على أحسن ما يُرام.. مشكلتنا الوحيدة هي عدم القناعة.

قالت بجعةٌ عجوز:

- لنبحث عن قائدٍ ينيرُ لنا الطَّريق. لقد سمعت عن طائرٍ يُسَمَّى «سي مرغ» وهو أكبرُ وأقوى وأكثرُ حكمةً من ثلاثين طائراً؛ جناحاه العظيمان الملوَّنان أجملُ من جناحي سائر الطيور.. إنَّهُ مَنْ يستطيع أن يقودنا.

سألت باقي الطيور وقالت:

- أين يعيش هذا الطَّائر؟ وكيف نجده؟

أجابَت البجعةُ العجوز قائلةً:

- سمعتُ من أبي الذي سمع من أبيه أن هذا الطَّائر يعيش في مكانٍ بعيدٍ، وراء سبعة جبالٍ، وسبعة بحارٍ، وسبع صحارى.

عبَّرت كثير من الطُّيور عن استعدادها للخروج للبحث عن «سي مرغ»، لكنَّ أحدهم قال:

- لدينا كلُّ ما نريده، وليس من داعٍ ولا من الحكمة مغادرة هذه الجنَّة للبحث عن سرابٍ.

وفي اليوم التالي بدأت مئاتُ الطُّيور رحلة البحث، لكنَّ الرِّحلة كانت أصعبَ بكثيرٍ مما توقَّعوه. طاروا فوق الجبال والبحار، ومرّوا بالنيران والثلوج، وعانوا من الجوع والعطش، وكان بعضهم في كلِّ مرَّةٍ تواجههم صعوباتٌ قاسية يستسلمون ويعودون من حيثُ أتوا. كثيرٌ منهم ماتوا في الصحارى والجبال، وفي آخر المطاف لم يتبقَّ من مئات الطُّيور الذين خرجوا لهذه الرِّحلة إلاَّ ثلاثون طائراً.. وبينما كانوا يرتاحون في الليل صحا أحدهم فجأةً، وأيقظ الباقين، وقال لهم:

- انظروا! انظروا إلينا! نحن ثلاثون طائراً.. نحن مُنهكون ومُحبطون، لكنَّنا ذوو قوَّةٍ وعزم. من ينظر إلى سائر أجنحتنا يجدها ملونة بشتَّى الألوان؛ ونحن معاً أقوياء كثلاثين طائراً؛ وحجمنا معاً بحجم ثلاثين طائراً.. زدْ على ذلك أنَّ عبارة «سي مرغ» الفارسية تعني «ثلاثين طائراً».. نحنُ أنفسُنا ذلك الذي نبحث عنه طول الوقت!..

تعلَّمت الطيور من تلك الرِّحلة أشياء كثيرة، وأصبحوا ذوي قوَّةٍ وعزمٍ. لقد خرجوا من جنَّتهم، ومرُّوا بكثير من التَّجاربِ القاسية. الأقوى والأكثر حزماً منهم فقط هم من استمروا في رحلتهم ولم يستسلموا على الرغم من جميع الصِّعاب لكي يُحقِّقوا ذاتهم»..

- هل انتهت القصَّة هنا؟

هكذا سأل البطريق الصَّغير وعيناه تقاومان النَّوم..

- نعم.

- لكن هل وجدت الطُّيور ما كان ينقصها؟

- لا يمكنها أن تجده أبداً. أو بالأحرى وجدت أنَّ ما كانت تبحث عنه لا يستحقُّ البحث. إنَّ أفضل ما يمكن للمرء أن يجده هو «طريق البحث»، أو أن يجد المكان الذي ينبغي له أن يبدأ منه البحث. رُبَّما تكون الطُّيور قد لاحظت أنَّها تبحث في المكان الخطأ عندما حقَّقت ذاتها.

قال البطريق مبتسماً:

- أعجبتني قصَّتك.. نهايتها بمثابة بدايةٍ جديدة..

قال ذلك وهو يغمض عينيه ويستسلم للنَّوم..

•••

- صباح الخير يا ضيفي الصَّغير.. عندي لك أخبار سارَّة؛ أنوي أن آخذك في رحلةٍ بطائرتي.

- حقّاً؟ هذا رائع!

توجَّهنا نحو طائرتي التي كانت متوقِّفةً عند الشاطئ.

- من أين حصلت على هذا الطَّائر؟

- لقد صنعتُها بنفسي؛ ستلاحظ عندما نقترب أنَّها ليست جسد طائر عملاق، لقد صَمَّمتُها بنفسي وبنيتُها من قطعٍ معدنيةٍ.

- تلك التي أخرجتها من أخوات الصخرة؟!

- يمكن التعبير عن الأمر بهذه الطريقة، لكنني أحسنتُ استعمالها؛ فقد كانت مضغوطة في باطن الأرض، وها هي الآن تُحلِّق في عنان السماء.

- ما هذه الرُّموز؟ إنَّها هنا أيضاً تشبه تلك التي على بيض الطُّيور.

- ما هي إلاَّ كتابة ليس أكثر.. إنَّها طريقةُ تعبيرٍ خالدةٌ وصامتةٌ.

- وماذا تقول تلك الكتابة؟

- ثمَّةَ اسمي، وهذا يعني أن هذه الطَّائرة ملْكٌ لـ«جون دو» الذي هو أنا. لدينا أيضاً كُتبٌ تتألَّفُ من العديد من الصَّفحات، وعلى هذه الصفحات رموزٌ مكتوبةٌ.

- وماذا تقول تلك الكتابة؟

- أشياء مختلفة؛ أشياء هامَّة جدّاً، إلى درجة أنَّه لا يمكننا أن نعتمد في حفظها على الذاكرةِ وحدها، أو أشياء ليست على قدرٍ كافٍ من الأهمية حتَّى نحفظها في ذاكرتنا.

وسرعان ما حلَّقنا عالياً فوق الجزيرة.. لم يُبْدِ البطريق أي حماسةٍ أو فرحٍ خاصٍّ بالتجربة خلافاً لما توقَّعتُه.

- هذه الجزيرة وحيدة تماماً. لا يُحيط بها إلاَّ جبال الجليد.

قال ذلك بصوتٍ حزين، ثم تابع:

- لو تملَّكني التَّعبُ وأنا في الجوِّ لما وجدتُ مكاناً أحُطُّ عليه إلاَّ جبال الجليد التي لا تُحبُّ الأجسام الدَّافئة.

همهمتُ بصوتٍ منخفض:

- أعرف ذلك، فقد كانت زوجتي واحدة من تلك الجبال.

وعندما حطَّت بنا الطَّائرة وعدنا إلى كوخي توجَّه مباشرةً إلى وِسادته واستلقى، ثم قال بصوتٍ منخفض:

- يختلفُ الأمرُ إذا طار المرءُ بجناحيه.

•••

- بدأ مخزوني من الغذاء ينفد بشكلٍ مُخيفٍ. عادةً ما أقتاتُ على ما تجود به الطبيعة من موارد، لكِنَّ العناية بهذا الضَّيف الصَّغير في الأيام الأخيرة جعلتني حبيس كوخي.

- عليَّ الذَّهاب لصيد السَّمك، هل يُزعجك أن تبقى وحدك هنا ريثما أعود؟ سأعود خلال بضع ساعاتٍ لا أكثر.

- هلاَّ أوكلت إليَّ شيئاً أفعله في أثناء غيابك؟

- هل تُريدُ لُعبةً مثلاً؟

- أعطني كتاباً أتفرَّج عليه.. ذاك الذي هناك.

وأشار بطرف جناحه إلى رفِّ الكتب.

- تاريخ الفن؟!

استغربتُ.

- هل تُريد كتاب «تاريخ الفن»؟

- رأيته عندما تصفَّحتَهُ قبل أيام، إنَّه يحتوي على العديد من الصور.

عندما وصلت إلى الشاطئ لم أستطع التوقُّف عن التفكير في ذلك المخلوق الصَّغير، وفي مصيره. كان واضحاً أنَّه تجاوز مرحلة الإنكار التي كان يرفض خلالها التساؤل بشأن هويته.. حتَّى غضبُه لم يجْدِ نفعاً.

لقد حاول أن يجد طريقا مُختصراً يوصله إلى مصيره؛ حاول أن يجد طرف الخيط ليعرف ما الذي حدث في الماضي البعيد لكي يعرف بالتالي هل يمكنه تغيير ما حدث. وها هو الآن مريضٌ ومُكتَئبٌ؛ يبدو أنَّه توقَّف نهائياً عن التَّفكير في الأمر، لكنني أعتقد بأنه ما زال في أعماقه يحاول هضم المسألة. تُرى هل يتمكَّنُ من تقبُّل الأمرِ في نهاية المطاف؟ وهل سيحدث ذلك قبل أن يحين وقت مغادرتي للجزيرة وتركه هنا ليواجه مصيره وحده؟

ما حجم الصدمة التي قد يصاب بها بطريقٌ وُلِدَ يتيم الأمِّ؟ لو كان قد خرج إلى العالم في مجتمعه وفي عشٍّ والديه لكان الآن قد فُطِمَ، ولصار طائراً راشداً مثل غيره من أقرانه الذين يتجمَّعون على الشاطئ الآن.

لقد رأيتُ هذه الظَّاهرة عدَّة مرَّاتٍ، لكنَّني لم أتابعها بهذه الدِّقة من قبل. نزلت المئات من صغار البطريق إلى الشاطئ لتسبح لأول مرَّةٍ في حياتها. لقد غادرت طيور البطريق الراشدة الجزيرة وتركت صغارها وراءها، لذلك فإنَّ نزول صغار البطريق للسِّباحة هو حدثُ مأساوي واحتفاليٌّ في الوقتِ نفسه.. صغار البطريق الصَّاخبة والـمُتحمِّسة

رفعت صوتها عالياً بالصياح لبعض الوقت، ثمَّ غطست في الماء. يشبه هذا الاحتفال بعض الرقصات الحربية التي تقوم بها قبائل الهنود، فهذا الحدث بالنسبة إلى صغار البطريق يضاهي الاستعداد لحربٍ خطيرة؛ لأنَّ الفقمات النمرية تترصَّد لهم في الماء!

تستطيع طيور البطريق الراشدة أن تسبح بسرعة خمسة وأربعين كيلومتراً في الساعة، ويمكنها الخروج إلى سطح الماء بقوَّةٍ كبيرةٍ تُمكِّنها من القفز والاستقرار على قطعٍ جليديةٍ يفوق علُوُّها المترين.

السِّباحة الأولى لصغار البطريق لم تَعْدُ كونها بطْبَطَةً خرقاء في الماء مما يجعلها فريسةً سهلةً للفقمات النمرية التي تتربَّصُ بها في الماء.

توجَّهت طيور البطريق المتبقية إلى اليابسة الجليدية التي قضى فيها آباؤها فصل الشِّتاء. هذه المسرحية المأساوية تشبه امتحان استحقاقٍ قاسٍ لا ينجح فيه إلاَّ الأسرع والأقوى والأكثر حظاً، ومن ينجح في الامتحان ينضم إلى مجتمع الراشدين، فيما يقع الباقون فريسةً للفقمات.

جلستُ على ضفَّةِ الخليج أصطاد السَّمك وأراقب صغار البطريق. في الجهة الأخرى من الخليج كانت الفقمات النمرية تطاردُ مجموعةً من البطاريق الصغيرة، مما دفعها إلى اللجوء إلى قطعة جليدٍ. جُرِح أحد الصِّغارِ ونزف دماً. إحدى الفقمات النمرية التي كانت تربض تحت القطع الجليدية صعدت مرتين أو ثلاثاً

لمراقبة فريستها الـمُحتملة تلك. وفجأةً غاص أحد صغار البطريق وسبح نحو الفقمة مباشرةً، فالتقطته بسرعة البرق، وما هي إلا لحظاتٌ حتى كانت قد سلخت جلده بهزَّاتِ رأسٍ مسعورة. ما إن رأى باقي صغار البطريق ما حدث حتَّى سبحوا نحو الشَّاطئ بسلامٍ.

لم يكن ما رأيته جديداً عليَّ، فقد رأيته مئات المرات، لكنَّني لم أُعره هذا القدر من الاهتمام من قبل، ولم يُؤثِّر فيَّ بهذه الشِّدَّة من قبل. ما هو الدَّور الذي لعبه ذلك البطريق الذي قفز إلى الماء وسبح نحو حتفه؟ هل كان أغبى البطاريق أم أشجعها؟ هل كان ما فعله اختياراً أم مُجرَّدَ ردّ فعلٍ انعكاسيٍ؟ هل كانت تلك تضحيةً خطَّطَ لها بشجاعةٍ لإنقاذ الآخرين؟ ذكَّرني بالحروب التي يُلقي فيها أصغر الجنود سنّاً بأنفسهم فوق الألغام حتَّى يعبُر الجنود الآخرون بسلام.

هل تقتاتُ الفقمات النمرية على لحم البطاريق لأنهم أذكى وأقدر على البقاء، أم لأن لديهم سلاحاً أفضل؟

البطريق الصَّغير الذي ينتظر في الكوخ لا يختلف في شيءٍ عن أيٍّ من البطاريق التي على الشاطئ، غير أنَّ وجوده في المكان الخطأ جعله يدرك الحقيقة وينظر إلى العالم من زاوية مختلفة تماماً. لا أعرف إن كان ذلك الخطأ الذي ارتكبتُه سبباً في سعادته أم في تعاسته.

لقد تعلَّم الكثير من الأشياء عن العالم بالتأكيد، ونضج بما

يكفي ليتمكَّن من طرح الأسئلة، وتقويم الأمور. إنَّه باحثٌ لا يقدر أن يحيا من دون أن يعرف سبب وجوده. لكن هل يجعله ذلك مختلفاً في نظر الفقمات النمرية؟ هل يجعله ذلك فريسةً أقلَّ جاذبية، أم يجعل حياته أكثر قيمةً؟ أَهُوَ فريسةٌ مختلفةٌ عن باقي صغار البطاريق؟

ما المسألة إلاَّ مسألـةُ «أدوارٍ» و«مَهـامّ»؛ تمـرُّ المخلوقـات بمرحلة الرضاعة، ثم الطفولة، ثم مرحلة التَّلْمَذَة. يسرق الفرْدُ فيكون سارقاً ثمَّ يُصبح سجيناً؛ يطرح الأسئلة فيكون فيلسوفاً؛ ويشارك في الحرب فيكون جندياً؛ ويُلقى به في عرين الأسود فيكون طريدةً وفريسةً، ولا يبقى منه إلاَّ ذكرى..

أدركتُ أننا معشر البشر نُقَوّم العالم من حولنا من منطلقٍ أنانيٍّ بحتٍ، إذْ ينبغي أن تكون الأشياء جميعها منطقية في علاقتها بنا.

من يُؤمنون بالتناسخ[1] يقولون إنَّ الإنسان قد يعود إلى الحياة في جسد حيوانٍ إذا لم يعِش حياةً آدمية «لائقة». لقد عاشت البطاريق في هذا الكون مئات ملايين السنين قبل خلق الإنسان، شأنها في ذلك شأن باقي الحيوانات، فإلى أين ذهبت أرواح كل تلك البطاريق يا ترى؟ رُبَّما يعود بعضهم إلى الحياة في جسد بشر عقاباً لهم على أنَّهم لم يعيشوا حياةً بطريقية «لائقة»..

ما حدث في ذلك الصَّيف جعلني أعتقد بأن الإنسان قد يجد

---

(1) أيْ عودة الروح إلى الحياة بجسد آخر.

توءم روحه حتَّى في أقصى الجزر، وقد يكون توءمَ روحه بطريقٌ صغير. كنت أشعر أحياناً بأنَّ ما يربطنا أكبر بكثير من ائتلاف الأرواح، فعندما كنتُ أنظر إليه كنت أشعر بأنَّني أنظر إلى نفسي. أمِنَ الممكن أن تعود روحٌ واحدةٌ إلى الحياةِ وتسكن في جسدين مختلفين، الأول بشري والثاني حيواني في الوقت نفسه؟! إمكانية حدوث ذلك محدودة جداً، لكنها ليست مستحيلة. وهذا قد يُفسِّر ما يتميَّزُ به كل واحد منَّا من «خصائص حيوانية». إذا حام حولك طائرٌ، أو حدَّقت فيك قطَّةٌ، أو إذا شعرت بانجذابٍ تجاه حيوان ما فانتبه وانظر جيِّداً؛ لأنَّك في تلك اللحظة بالذَّاتِ قد تكون بصدد النظر إلى نفسك.

•••

ما إن حصلتُ على ما يكفي من السَّمك حتَّى أسرعتُ إلى كوخي.. لقد تعوَّدتُ على وجود البطريق الصغير، وعندما أفكِّر في أنَّهُ قد يغادر الكوخ في أثناء غيابي أشعرُ بعدم الارتياح.

وجدتُه جالساً على وسادته يتفرَّج بهدوءٍ على صور الكتاب الذي أعطيتُه إيَّاهُ، وما إن دخلت إلى الكوخ حتى قال لي:

- أصبحتُ الآن أعرف سرَّك.. لقد حُكِم عليك تماماً كما حُكم على الآخرين.

- لقد سبق أن أخبرتُك بأنهم طردوني من الحديقة.

- لا أقصد ذلك، وإنَّما هذا.

أراني صورة مجموعة من الطيور، يطير معها كائن غريب يشبه البشر.

- أقصد هذا.. لقد كان لبني جنسك أجنحةٌ أيضاً. أنتم أيضاً كنتم طيوراً، وما زال لديك منقارٌ.

قال ذلك وهو يشير إلى وجهي، وتابع:

- ولديك آخر أسفله أيضاً.

- هذا أنفي الذي أشُمُّ به، وهذه بقايا تفَّاحةٍ لم آكلها يوماً.

- لماذا تحتفظ بهذه الصورة؟

نظرتُ لحظةً إلى صورة الطيور التي تحوم في اللوحة مع ذلك الكائن.

- لا أدري! رُبَّما كانت لي أجنحة في يوم من الأيَّام، لكني بالتأكيد لم أكن طيراً يوماً.

- وماذا عن هذا الكائن الغريب؟! كيف يستطيع البقاء مُعلَّقاً في الهواء هكذا؟

أشار ضيفي إلى صنارة معلقة في وسط اللوحة؛ وقال:

- إنه مُعلَّقٌ بخيط صنَّارةٍ رقيقٍ جدّاً، ولذلك لا يمكنك رُؤيته. فيبدو ذلك معلقاً أو طائراً في الجو.

مشى البطريق نحو اللوحة وتأمَّلَها بدقة للحظات.

- هل أراد أن يظل هكذا معلقاً؟! أم أن أحداً غيره أراده كذلك؟!

- شيءٌ ما من هذا القبيل، أظن أنه تُرك هكذا ليظل رمزاً للطاقة التي قد لا نراها، لكنها موجودة فعلاً لو دققنا في الأمر جيداً. قد تكون فينا مباشرة، أو في الأدوات التي نستخدمها؛ كالصنارة وخيطها الذي لا يكاد يظهر. الإنسان لا يستطيع الطيران بذاته؛ لأن

الخالق سبحانه لم يجعل له جناحين، لكنه استطاع أن يطير عندما استعمل عقله، فحلق في الجو بالمنطاد ثم بالطائرة.

- من أيِّ خشبٍ نُحت ذلك الشكل الغريب؟

- من واحدةٍ مثل هذه..

وأشرتُ إلى قطعةٍ من خشبِ الباتولا التي كانت قرب المدفأة.

- كيف استطاع الإنسان أن يفعلها هكذا؟

- بالعقل .. لم تكن قد وضعت في مخيلة المصمم الصورة النهائية لشكل هذه الكائنات حتى فرغ منها، كان يمكن أن تظهر أشكال أخرى غيرها، كهذه السمكة.

أشرتُ إلى سمكةٍ كنتُ قد نحتها على قطعة خشبٍ أخرى.

- يبدو أنك تستخدم عقلك بطريقة مميزة.

ثم انتقل بصره إلى قطع الخشب الـمُكوَّمة جانب المدفأة.

- وماذا عن تلك؟

- لم أتوقع أن أستخرج منها شيئاً، لكنني عرفت أن فيها طاقة يمكن أن تعطيني الدفء، فها أنا أحاول أن أستثمرها في هذا الاتجاه.

حدق برهة في الأشكال الغريبة للطيور وفي ذلك الكائن البشري، ثم هز رزسه يمنيناً ويساراً، واتجه نحو زجاج النافذة لينظر من خلال الزجاج إلى ذلك الأفق الممتد نحو اللا نهاية.

•••

- رأيتُ حُلُماً ليلةَ البارحة، أخبرني ضيفي في الصباح التالي

عندما استيقظ. وبعد ذلك سألني كأنَّه نسي ما كان يَوَدُّ أن يقوله:

- ماذا نُسمِّي الحلم المخيف؟

- الكابوس أو الجاثُومُ.

- لماذا؟

- لماذا تسأل؟

- ما معنى كلمة «جاثوم»؟

- إنَّها كلمة قديمة. أعتقد بأنَّها تعني روحاً شرِّيرةً تجلس قرب النَّائم وتجعله يشعر بأنَّه يختنق.

- وماذا لو لم تكن تلك الروح شرِّيرةً؟

- يكون الحلم كابوساً على أيِّ حالٍ إذا استيقظت من نومك وأنت تشعُرُ بضيقٍ. هل رأيت كابوساً؟

- لستُ متأكِّداً، كنتُ أتصبَّبُ عرقاً، لكنَّني عندما استيقظتُ أحسست...

لم يتمَّ جملته، كأنَّه لم يجد الكلمة المناسبة..

- احك لي حلمك، فربَّما ساعدتك على إيجاد اسم مناسبٍ له.

- رأيتُ نفسي مرَّةً أخرى على حافَّةِ الصخرة، لكنني هذه المرَّة لم أكن أنوي القفز، لكنَّ أحدهم علَّقني في الجو وسألني: «من هو ربُّك؟» كان المكان مُرتفعاُ جداً، وكنت أرتجف خوفاً. خفتُ أن أجيب جواباً خاطئاً فيتركني لأسقط.. سألني ذلك الصَّوتُ مرَّةً أخرى بنبرةٍ أكثر حدَّةً: «من هو ربُّك؟»، فصحتُ قائلاً: «ما أنا إلاَّ بطريقٌ يتيم». تردَّد صدى ذلك السُّؤال في الجوِّ مرةً أخرى، لكنَّ

الصَّوتَ هذه المرَّة كان مثل دوِيِّ الرعد، إلى درجة أن الأرض اهتزَّت لشدَّته، حينئذٍ أدركتُ أنني في المكان الذي أردتُ القفز منه قبل فترةٍ قصيرةٍ. نفسُ الفِعلِ الذي كان اختياري الشَّخصي أصبح شيئاً مخيفاً الآن بعد أن تحوَّل إلى خطرٍ أو عقابٍ على ذنبٍ لم أقترفه. رأيتُ نفسي خائفاً من فقدان الحياة التي لم أرغب بها يوماً. لم أعرف الإجابة لأنني لم أعرف حتَّى إن كان لديَّ ربٌّ أم لا. لكنني كنت متأكِّداً من شيءٍ واحدٍ: الخوفُ ليس ربِّي. ما إن فكَّرتُ في ذلك حتَّى انفلتت يدي وسقطتُ، لكن سقط العالم والصَّخرة أيضاً. أدركتُ أنني أسقط، لكنني لم أصل إلى الأرض أبداً.. وعندما استيقظتُ، شعرتُ...

انتظرتُ أن يُكمل جُملتَهُ، لكنَّه اكتفى بالنظر إلى مكانٍ بعيدٍ، إلى المجهول، إلى اللانهاية كما فعل من قبل. وعندما ذهبتُ لإضافة الحطب إلى المدفأة، ناداني باسمي للمرة الأولى.

- جون!

التفتُّ لأنظر إليه.

- أعتقد بأنَّني أحتاجُ إلى شيءٍ أؤمنُ به.

وبمرور الأيَّام اشتدَّ عود البطريق، وبدأنا نخرجُ أكثر للاستجمام. كان بالي مشغولاً بالعثور على طريقةٍ تجعله يُصبح مُستقلاًّ تماماً ليتمكَّن من الاعتماد على نفسه، أو لينضم إلى باقي البطاريق الذين لا يزالون في الجزيرة. عليَّ مغادرة الجزيرة قبل أن يتجمَّد البحر، وعليَّ أن أخبره بأنَّني سأغادر.

- ماذا لو جئتَ معي؟ أنت تعلم بأنَّ عليَّ أن أغادر قريباً.

- إلى أين؟

- إلى المكان الذي يسكن فيه قومي. يمكنك أن تأتي معي إذا أردت، ويمكنك أن تسكن في مكان يُسمى «حديقة الحيوان» إلى أن تقرِّر بشأن المكان الذي تريد أن تعيش فيه نهائياً. ثمة بطاريق أخرى تعيش هناك.

- صف لي ذلك المكان.

- هو مكان فيه حيوانات كثيرة، ستحصل هناك على الغذاء والعناية اللازمة، ومقابل ذلك لا يُطلبُ منك أن تفعل شيئاً سوى التفرج على الناس الذين يزورون المكان ثماني ساعاتٍ في اليوم.

- يبدو أنّه مكان ممل.. أفضِّل البقاء هنا.

مررنا في أحد الأيام بالمكان الذي وجَدْتُه فيه، فأخبرتُه أين وجدته بالتحديد.

- هنا؟ ليست لديَّ أي فكرةٍ عن وصولك إلى هنا.. لا أتذكَّر أيَّ شيءٍ.

- ما هو آخر شيءٍ تتذكَّرُه؟

- أتذكَّرُ أنّني كنت في مكانٍ مرتفع فوق الصَّخرة بعيداً جدّاً عن هنا. سبق أن أخبرتك عن حديثي مع الصَّخرة.

فأجبتُ مُؤكِّداً:

- نعم أخبرتني.

- أتذكَّرُ أنَّني دخلتُ في بطن الصَّخرةِ عندما بدأ المطر ينزل، فالتقيتُ هناك بكثير من الخفافيش، وهي كائناتٌ بارعةٌ في فن الطيران. إنَّ طريقة تحليقها في الجوِّ تُفْقِدُ صوابَ أكبر الطيور، وهي لا تهتَمُّ بتعاقب اللَّيل والنهار؛ لأنها لا تحتاج إلى الضوء. إنَّها تُغنِّي أغنيةً تجعلها ترى كل شيءٍ مهما كان الظَّلامُ حالكاً. إنَّها لا تقتاتُ إلا بالدَّم؛ لأنَّه يحتوي على جوهر الحياة. تقول الخفافيش إن الدَّم بالنِّسبة إلى الجسد كالأحلام بالنسبة إلى الرُّوح. السَّبب الآخر هو أن كل أنواع الغذاء الأخرى تتطلَّب هضمها، وليس لديها وقتٌ تُضيِّعُه.

- ليس لديها الوقتُ لهضم الغذاء؟ لماذا كل هذه العجلة؟!

- لأنهم يحلمون، ولأنهم لا يعيشون إلاَّ من أجل أحلامهم. يتعلَّقون في السَّقف رأساً على عقبٍ طيلة اليوم؛ حتَّى يسري الدَّمُ في رؤوسهم بشكلٍ جيِّدٍ، لا شُغلَ لهم إلا الأحلام. يقولون إنَّ كلَّ شيءٍ في العالم وهمٌ ما عدا الأحلام.

- لم أسمع بهذا من قبل!

- لأنَّك لم تتحدَّث معهم.. حكيتُ لهم قصَّتي فحزنوا كثيراً، وأخبروني بأنَّهم كانوا يَبيضون في الماضي البعيد قبل أن يُحكم عليهم بآلام الولادة كعقابٍ لهم على شرب دَم مُحرَّم. من المثير للانتباه أيضاً أنهم يتقاسم بعضهم بعضاً الدماء الَّتي يشربونها مثلما يتقاسمون الأحلام، وإذا لم يَحصل أحدهم على ما يكفيه من الدَّم يوماً ما فإنَّ الآخرين يعطونه قبلةً ينقلون إليه عبرها بعضاً من الدَّم الذي حصلوا عليه.. وقد طلبتُ منهم أن يشربوا من دمي.

- حقّاً؟! لماذا؟

- أردتُ أنْ أُصبح جزءاً منهم، وأن أكون معهم حين يطيرون، وأن أحلم معهم، لكنَّهم رفضوا. اقترب أحدهم من رقبتي وشمَّ رائحتها، ثم عاد وتَعلَّقَ في مكانه. قال لي إنَّني كنتُ ضعيفاً جداً، وبأنَّ نبض قلبي ضعيفٌ أيضاً؛ إنَّهم يُؤمنون بأن مصَّ دماء المخلوقات الضَّعيفةِ يُضعفهم كذلك.

فهمهمتُ:

- ليت الأمر كذلك في كلِّ مكان!

- تحدَّثتُ لاحقاً مع الصَّخرة، لكنَّني لا أتذكَّر ما الذي حدث بعد ذلك.

- وماذا قالت لك الصَّخرة؟

- حكت لي عن قومي، وأخبرتني أنهم كانوا شجعاناً وأحراراً، كما أخبرتني أنَّ ثمَّةَ حياةً تحت الأرض كذلك، وأنَّ حجم الصَّخرةِ أكبر بكثير في أعماق البحر. لقد رأت الصَّخرة قومي وهم يسبحون بسرعةٍ تفوق سرعَة الأسماك، وهم يقطعون مسافاتٍ شاسعة، وشهدت كفاحهم ضدَّ أعدائهم ودفاعهم المستميت عن أصدقائهم وصغارهم. قالت إنَّهُ ينبغي لي أن أكون فخوراً بكوني بطريقاً، وشجَّعتني على الانضمام إلى جماعة البطاريق.

- يُسعدني سماع هذا، وأنا أوافقها الرَّأي. ما رأيك في الانضمام إليهم قبل أن يرحلوا؟

سكت للحظةٍ ثم تقدَّم بخطواتٍ مُثقلة إلى الأمام مترين أو

ثلاثة.

- حاولتُ، لكنَّهم لم يقبلوني.

- حاولت؟! متى؟

- لا أريدُ أن أتذكَّر ذلك بالذَّات.. كنتُ على الشَّاطئ الذي تجمَّعوا فيه، فجاءني الحرَّاسُ وطرحوا عليَّ أسئلةً لم أعرف إجابتها.. عندئذٍ أخبروني أنَّني لم ألِج حضانة الأطفال، وأنَّني جاهل. كما سألوني: «أين كنت عندما كنَّا نقدِّم ضحايانا؟ وأين كنت عندما كان إخواننا وأخواتنا يموتون بين براثن طيور النورس وطيور الكركر؟ وأين كنت عندما كانت الفقمات النمرية تذبحنا جماعاتٍ جماعاتٍ في أوَّلِ مرَّة نسبح فيها إلى أن لوَّنت دماؤنا مياه البحر؟» أجبتهم أنَّني ضللتُ الطَّريق.

•••

لم أكن أعرف شيئاً عن هذه الفترة من حياته..

لم تبق في جُعبتي أيُّ نصائح لأقدِّمها له، وحان وقت مغادرة الجزيرة.. خيَّم الصَّمتُ على كوخي ليومين كاملين بعدما كشف لي ولنفسه عن ذلك الجُزء المغلق السِّريِّ من ذاكرته. لقد رفضه عالمان، وانتُزعت منه هُويَّتان، وها هو يتجوَّل في مكانٍ ما بينهما. أخبرني في آخرِ يومٍ لي على الجزيرة أنَّه ما زال ثمَّةَ ما يُمكنُ فِعلُه. أردتُ أن أصدِّق أنَّه يُريدني أن أمكث في الجزيرة أطول وقتٍ ممكن، لكن الأرجحَ أنَّهُ هوَ الذي كان يستعدُّ لمهمةٍ لا مفرَّ منها.. وراء هدوئه الظاهري ثمَّةَ تغيُّراتٌ جذريةٌ تحدثُ.

رأيتُ في حياتي رجالاً على شفا اليأس، ورأيتُ أشخاصاً يستجمعون كل ما أوتوا من شجاعةٍ لمواجهةِ لحظةٍ واحدةٍ، وقد مررتُ بنفسي بمثل تلك الظروف. لم أُدرك يوماً أنَّ الأصعب من ذلك بكثير هو تدمير شيءٍ بنيتَهُ بنفسك في داخلك؛ تفكيك ذاتك؛ العودة إلى أرض الواقع لمحو ذَاتِك؛ حتَّى تتمكَّن من بناء شيءٍ جديدٍ بدلاً منها.. وهذا ما هو بصدد القيام به الآن.

وفي اليوم الثالث بعد أن حزمتُ حقائبي ظهر أمامي ورأسُه وكتفاه ملطَّختان بالطين، ووجهه ملوَّنٌ بالتراب فسألتُه:

- ما الذي حدث لك؟!

- سأعود الآن إلى هناك وسوف يقبلونني هذه المرَّة، هذا ما قالوه لي سابقاً، لكنَّني كنتُ في حاجةٍ إلى بعض الوقتِ. ليس عندي الآن إلاَّ أمٌ واحدة هي أمي الأرض، الأرض التي لم أعرف غيرها، أرضي: غوندوانا. لقد علَّمتني التَّواضع، وهو الطريق الوحيد الذي يُؤدِّي إلى العظمة. سأفعل ما نصحتني أن أفعلهُ؛ سأمرِّغ جسدي في الطين، وأذهب إلى قومي زحفاً على بطني. لن أُصبح طائر قطرسٍ أبداً، لكنَّني حقَّقتُ ذاتي تماماً مثل تلك الطيور التي في حكايَتك. أشكُرُك، وأطلب منك أن تُسامحني لأنني كسرت ساعتك الرَّملية.

- كسرتها؟! لماذا؟ ظننتُ أنَّني أضعتُها.

- تلك الرِّمالُ تستحِقُّ الحريَّةَ بعد كلِّ ذلك الوقتِ الذي قضته في سباقٍ يائسٍ مع الزمن، لكنَّ لديَّ هديَّةً من أجلك، أعطتني إيَّاها الصَّخرةُ.

- ما هي؟ يبدو أنَّها بذرة..

- أنت الذي يُعطي الأشياء أسماءها.. هي شيءٌ عجيبٌ بالنسبة إليّ، قالت لي الصَّخرة إنَّها ترمزُ إليَّ، لقد انتظرتْ هذه البذرةُ ملايين السِّنين، إنَّها أصغر من حبة الفول التي زرعتَها قبل أيام، لكنَّ في داخلها شجرةً كبيرةً تنتظر. لقد اختفت مثل هذه الأشجار من على وجه الأرض، ولم يُطلق بنو جنسك عليها اسماً بعدُ؛ لأنَّها انقرضت قبل أن يكون لكم وجودٌ بزمنٍ طويلٍ. أنتم على هذا الكوكب مُجرَّدُ حديثي ولادة. داخل هذه البذرة شجرةٌ عملاقة نائمةٌ؛ شجرةٌ حجمها أكبر بكثير مما قد تتصوره، لكنَّ عظمتها قد تبقى مجرَّد إمكانية. فلا بُدَّ من أن يأكل حيوانٌ ما هذه البذرة، ولا بدَّ لها أن تتنقَّل داخل جهازه الهضمي، وأن تختلط بالرَّوْثِ لكي تُصبح كاملَةً؛ وعندها فقط تكبر لتصبح شجرة رائعة. إنَّ ذلك يُشبه حياتي أنا؛ إذ ينبغي عليَّ أن أسير في كلِّ هذه الظُّلمةِ، وأن أختلط بحُلكتِها لكي أنضج. إنَّها تشبه تُفَّاحتك؛ ربَّما تكون المشكلة أنَّها انحبست في حلقك!

•••

خاتمة

وأنا أحلِّقُ بطائرتي فوق الجزيرة لمحتُ آخر صغار البطريق وهي تغادر الجزيرة استعداداً لفصل الشِّتاء، سوف يقضون السنتين أو السنوات الثلاث القادمة في البحر، وعلى قطع الجليد العائمة، ولن يعودوا إلى المكان الذي وُلدوا فيه قبل أن يتمُّوا السنة الثالثة أو الرابعة من العمر.

كنتُ أعود إلى الجزيرة كلَّ صيفٍ، ودأبتُ على البحث عن صديقي كلَّما اقتربتُ من البطاريق، لكنَّها جميعاً مُتشابهة. وكلَّما سمعتُ صوتاً في كوخي تمنَّيتُ أن يكون قد أتى لزيارتي.. لم أره قطُّ، لكنَّني كثيراً ما أحسستُ بوجوده، وعندما كنتُ أتجوَّل في الجزيرة كنتُ أرى جماعات البطاريق، وكلَّما رأيتُ أحدهم يُلوِّحُ بجناحيه لوَّحتُ له بيدي، فرُبَّما يكون هو أو بطريقٌ آخر يكون صديقي قد حكى له عنِّي.

كنتُ في كثيرٍ من الأحيان أشُكُّ بأن تلك القصَّة كلَّها لم تحدث على الإطلاق.

هل البطريق الصغير موجودٌ؟! أم أنَّه نتاج خيالي ووحدتي الطويلة؟! هل كنتُ أنا ذلك البطريق الذي ينبغي عليه التخلّي

عن آماله بالتحليق في السَّماء عالياً وقبول ما يُقدِّمه الواقع له؟ لو لم تكن تلك النُّدبة في يدي لَـمِلْتُ إلى هذه الفكرة.. ومن جهة أخرى تجعلني تلك الفكرة أدرك أن مصيرينا متشابهان جداً، كأنَّنا تقاسمنا روحاً واحدةً من دون أن نعرف.

تابعتُ جمع بيض الطيور، ووضع العلامات عليها. حاولت أن أكون دقيقاً، وأن أتأكَّد من إعادتها إلى مكانها الصَّحيح، لكنَّ الإنسان خطَّاءٌ..

على الأرجح، بعد مرور خمسة وثلاثين يوماً، في الصباح الباكر لأحد أيام الصَّيف الضبابية، وبينما كانت الكُرةُ الأرضيةُ تديرُ جنبَها للشَّمسِ بكسلٍ...

•••

ألكسيس كوروس

ولد ألكسيس كوروس عام 1961 في مدينة كرمانشاه الإيرانية، حيث نشأ وترعرع ودرس، وقضى عطل نهاية الأسبوع يتسلَّق جبال زاغروس. بعد الحرب العراقية الإيرانية سافر لدراسة الطب في جامعة «بيتش» المجرية، ومارس هواية الطيران الشِّراعي الـمُعلَّق في أوقات فراغه.

وفي عام 1990 سافر إلى فنلندا ليتابع دراسته، وعمل فيها طبيباً.

أبناء غوندوانا هي أولى رواياته، حيث تستلهم طابعها العام من عالم السَّرد الفارسي التقليدي، على الرغم من أنَّ موضوع الحكاية - مسألة الهُوية - هو موضوع حديثٌ بامتياز.

نُشرت رواية **أبناء غوندوانا** بالفنلندية، ثم ترجمت إلى لُغاتٍ عديدةٍ.

•••

ألكساندر رايشتاين

وُلد ألكساندر رايشتاين في موسكو عام 1957. درس تصميم المطبوعات، ووضع الرسوم التوضيحية في مدرسة موسكو العليا للرسم الغرافي من عام 1976 إلى عام 1982، وتخصَّص في رسوم كتب الأطفال. وعمل في دار نشر إيسكوستفو في موسكو من عام 1982 إلى عام 1985.

شارك ألكساندر رايشتاين في عدة معارض في روسيا وخارجها، ووضع رسوماً توضيحية لكتب الأطفال والراشدين، ورسوماً متحرِّكة، وأدار ورشاتٍ تدريبية، وأعطى دروساً في الفن، ونظمَ محافل فنية، وألّف كتباً فنيةً، ونحت تماثيل مختلفة. وقد عرضت أعماله الفنية في فنلندا وغيرها من البلدان (في ألمانيا والسويد والنرويج والولايات المتحدة وروسيا على سبيل المثال لا الحصر).

يقول ألكساندر رايشتاين عن الرسوم التي وضعها لكتاب أبناء غوندوانا ما يلي:

«غوندوانا في اعتقادي هي البطل الرئيسي لهذه القصة، لذلك اخترتُ أن يتألف كل رسم في الأساس من صورٍ التقطتها لحجارة وصخور. أمَّا التصميم الغَرافي لهذه الصور فقد نشأ من نقوش تلك الحجارة وتلك الصخور.. وتُبرِز كل تلك الصور ملامحَ غوندوانا؛ الأرض الضاربة في القدم».

أبناء غوندوانا

«هذه حكاية بطريق فقست بيضته في عش طائر قطرس عن طريق الخطأ، وهي حكاية فلسفية حكيمة حول النمو الروحي وتحقيق الذات». ماتي ريني، جريدة إيلتاسانومات.

«قصة ألكسيس كوروس «أبناء غوندوانا» من بين القصص القليلة التي لا يمكن للمرء أن يحدد. أتمنى أن يجد الراشدون طريقهم إلى هذه الرواية إلى جانب الأطفال والناشئة». نيكلاس بينغتسون، مجلة أونيما ني.

ترجمت رواية «أبناءغوندوانا» إلى عدة لغات من بينها: اليونانية واليابانية والدانماركية والسويدية، وحصلت على جائزة «فنلانديا جونيور» عام 1997.

السعر: 35 درهماً


9 789948 173939



